أ . د . حلمي محمد القاعود

عباد الرحمن .. وعباد السلطان

١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

استهلال

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وأصحابه أجمعين ، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى أبويه إبراهيم وإسماعيل وعلى أتباعه الأحرار المهتدين إلى يوم الدين ..

وبعد :

فآمل أن تكون الصفحات التالية تعبيرا أو ترجمة عن أشواق أمتنا الإسلامية من خلال عقلها الذي تمثله مصر الكنانة ؛ في الحرية والعدل والتفوق والكرامة والعزة التي اصطفاها الله لنفسه ولرسوله وللمؤمنين ..

بعض الناس يتصور أن الإسلام يقف حجر عثرة في طريق الأمم والشعوب نحو التفوق والتقدم ، وهذه فرية لا أساس لها من الصحة ، بدليل أن الأمة الإسلامية في أقل من قرن من الزمان ؛ بعد نزول الوحي ، استطاعت أن تكون الدولة العظمى في العالم عقيدة وفكرا وقوة وبناء ومجدا وعظمة ، وما ذلك إلا لوجود المسلم القوي إيمانا وخلقا ، الحر سلوكا ومنهجا ، الذي يستطيع أن يواجه الخليفة وجها لوجه وينتقده لمصلحة الإسلام والمسلمين .. ومع أن البعض يرجف في المدينة ، ويزعم أن الإسلام لم يعرف الحرية والمعارضة إلا لفترة محدودة في عصر الراشدين ؛ فإن تكوين الأمة ذاته على مستوى الأفراد كان منتميا إلى الحق والعدل والكرامة والمساواة ، ولذا استطاع المسلمون على مدى القرون الخمسة الأولى – مع كل الخلافات والصراعات بين الأطراف المختلفة - أن يتحركوا تلقائيا في بناء مجتمع الحرية المؤمنة، وأن يصنعوا تراثا عظيما كان قاعدة للنهضة الإنسانية الراهنة في مجالات مختلفة .

ومن ثم ؛ كان إلحاح صفحات هذا الكتاب على مناقشة الهموم الإنسانية التي يعيشها شعبنا المظلوم في دائرة المظالم والمتاعب والآلام التي يصنعها بعض أبنائه في دائرة المسئولية أو بعيدا عنها ؛ ثم محاولة إضاءة السبل التي تفسح المجال لتستعيد مصر وجودها الحضاري الإنساني الفاعل الذي سبقت إليه أمم حديثة النشأة والوجود ، عديمة التاريخ والميراث ، ولكنها استطاعت أن تمتلك أسس الحركة السليمة وعناصر التعايش الصحيحة ، فتوافق أبناؤها على الأهداف الكبرى والغايات الأساسية ، وكان الإنسان في هذه الأمم كيانا محترما له حق الصيانة والتقدير والعدل والمساواة فضلا عن الحرية والكرامة .

تتنوع الموضوعات والقضايا في هذه الصفحات ، ولكنها تبحث عن الإنسان المصري المظلوم وأحلامه المغيبة ...

أسأل الله أن يهدي قومنا إلى الصواب ، وأن يجمعهم المودة والأخوة والأمل .

وبالله التوفيق.

المجد في جمادى الأولى ١٤٣٠ هـ
يونيــــــــه ٢٠٠٩م

حلمي محمد القاعود

بسم الله الرحمن الرحيم

الشعب الفرعوني !

لي صديق عزيز يغضب مني دائما كلما دافعت عن شعبنا المظلوم ، وأبعدت عنه مسئولية المحنة التي يعيشها منذ مئات السنين ، تحت سياط الجلادين والطغاة والمغامرين والأفاقين والمستبدين . إنه يؤمن بالأثر : كيفما تكونوا يولّ عليكم ، فضلا عن الآية الكريمة " إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ " (الرعد : ١١).

يقول صديقي : انظر إلى الشعوب التي كانت تحت الحكم الشيوعي الدموي في بولندة ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا والاتحاد السوفيتي وبلغاريا وألبانيا .. حتى زامبيا وكينيا وجمهوريات الموز ، فضلا عن إيران وأفغانستان وميانمار وتايلاند ؛ كلها شعوب تتحرك ، وتغير بيدها ولسانها وقلبها ، إنها تنهض وتتقدم وتنطلق إلا مصر المحروسة ، فهي مثل "شارون" في غرفة الإنعاش منذ زمان بعيد لا يموت ولا يحيا ، هناك من يطالب بفصل الأجهزة الواصلة إلى قلبه ومخه حتى يموت ويستريح ويريح ، ولكن هناك من يرى ضرورة بقائه ليكون فزاعة مخيفة ولو لم تحدث أثرا ، المهم أن يبقى جثة هامدة لا تتحرك حتى يوقن الآخرون أنها ستنهض في يوم ما وتقف على قدميها ، وربك قادر على كل شيء ..

أقول لصاحبي : إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، فيزداد غضبا نبيلا ، ويشتعل انفعالا كريما ، ويذكرني بالآية الكريمة " إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ " (القصص: ٨) ، فأقول له : " إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا .. " (القصص: ٤) ، فيؤكد على أن فرعون ليس هو الحاكم وحده الذي يفرق ويمزق ويستبد ، ولكنه موجود في البيت والمدرسة والجامعة والعمل والشارع ، والحقل والسوق ، في تجارة الحديد والأسمنت والخشب ، وسيارات الميكروباص والنقل ؛ التريلا والمقطورة التي تقتل الألوف كل عام ،وضحاياها أكثر من ضحايا الحروب والمعارك العسكرية ، ومثلها العبارات المتهالكة والطائرات الخردة والقنوات الفضائية التي تبيع الرذيلة والناس تستسلم لها استسلاما كاملا ، ونواب الشعب الذين يصفقون للقوانين الظالمة التي تصادر حرياتهم ، وتقنن الاستبداد ، وتعتصر ناخبيهم وتقلب جيوبهم بحثا عن ملاليم ، وتفسح الطريق أمام اللصوص الكبار كي ينهبوا ثروة البلاد والعباد من أراض ومحاصيل ومنتجات ومصانع ، وأبواق النظام الذين لا يكلون ولا يملون من ترديد الأكاذيب ، وتصوير الأحوال على أنها فل الفل وعال العال..

وحين أحاول تهدئة صديقي العزيز ، و أقول له إن القرآن الكريم وصف فرعون بأنه كان من المفسدين ، وأطلب منه ألا يتحامل على الشعب البائس المسكين الذي تحمل ما لم يتحمله شعب آخر على ظهر الأرض ؛ ينظر إليّ بعين العتاب والأسى كأنه يتوعدني توعّد المحب الذي يتمنى ألا يقول لحبيبه إلا ما يرضيه ، ولكنه لا يملك ما يقوله ، ثم يفهم صديقي أني أريد أن أهدئ وتيرة الحوار ، أو أغير الموضوع ، ولكنه يرد بحزن شفيف :

ألم تقرأ قوله تعالى : " فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ " (الزخرف : ٥٤) ، والفسق كما تعلم وأعلم هو الخروج عن المنهج والتشريع والعقيدة ، وتأمل التوكيد الثقيل المشدد

– على وزن السجن المشدد !- بإن المشددة والضمير ، والجملة الاسمية ووجود الموصوف والوصف الظاهرين ، والقوم الفاسقون ، أو الشعب الفاسق ، هو الذي خرج عن الفطرة والاستقامة والمنهج ، وانحرف إلى طريق الفساد والأنانية والهروب من الواجب ، وعدم تحمل المسئولية ، وإلقاء التبعة على الآخرين ، والاكتفاء بالولولة واللطم والصياح ولوم السلطة والاعتقاد أن ما نعانيه من بؤس وتعاسة هو قدر لا مفر منه ، وقضاء نافذ لا حيلة فيه ولا مرد له ، ومؤامرة من الجن والإنس لا قبل له بها ، إنه شعب لا يفكر إلا في بطنه ومصلحته وفائدته . أما الآخرون فليذهبوا إلى الجحيم ...

أقول لصاحبي : سامحك الله ! كيف تفسر إذا هذه الرغبة العارمة لدى الملايين من شعبنا في العمل والتفوق والتعاون والتراحم ، ولكنهم لا يجدون من يأخذ بيدهم أو يستجيب لهم أو يوجههم إلى طريق السلامة .. أتراهم وهم ينجحون في الخارج ويلمعون وبعضهم يأتي إلينا بجوائز عالمية مرموقة .. يقفون في موضع المتهم الذي تتولى توجيه الاتهام إليه ؟

يزفر صاحبي زفرات حارة تكاد تحرق ما حولها ، ويقول بأسى عاتب :

أنت تجادلني ، وإني لواثق أن أعماقك تحوي سخطا أكثر من سخطي ، وغضبا أقوى من غضبي ، ولكنك مشهور بالهدوء والصبر والتحمل ، وكان معروفا عنك في شبابك قدرتك على الامتصاص ، لتطحن الأحداث في رأسك ، وتستخلص منها الدلالات والنتائج بعد أن تهضم الأسباب والمقدمات .. أقول لك إن شعبنا أعطى التفكير إجازة طويلة ، ويريد من يفكر عنه بالنيابة ، ومن يتولى قضاياه بالنيابة ، ومن يدافع عنه بالنيابة . انظر مثلا : نحن نسلم أمورنا للدول الكبرى .. نطلب من أميركا وروسيا حل مشكلاتنا مع الغزاة ، ننسحب إلى أعماقنا ، ونغلق الأبواب ، كي نترك للآخرين مهمة العمل واتخاذ القرار بالنيابة عنا ، ليس في السياسة وحدها ، بل في الاقتصاد والتعليم والصناعة والتجارة والاستثمار ؛حتى الزراعة التي كنا أول شعب في العالم مارسها وقننها ، وصدر خبراته فيها إلى شعوب الأرض ، ننتظر اليوم شذاذ الآفاق الغزاة ليقدموا لنا تجاربهم فيها ، علما أن كليات الزراعة ومعاهد البحوث تمتلئ مخازنها بآلاف الأبحاث (ماجستير ودكتوراه وغيرها) ، تقتات عليها الفئران وابن عروس والفأر النرويجي ، لأن أحدا لا تعنيه صفحاتها وما تضمه من خبرات وتجارب ونتائج !

ثم لماذا تذهب بعيدا ، وقد أطلق صاحبك الراحل " يوسف السباعي " – رحمه الله – صيحته الداوية قبل خمسين عاما أو يزيد حين صرخ في مصر : يا أرض النفاق ! .. انظر حولك تجد شعبا يحنو على الغريب والعدو ، ويقسو بعضه على بعض بصورة لا مثيل لها في العالم ، كل من يتعامل في الشارع في المكتب في أي مكان يستخدم قسوة أو فظاظة غير مسبوقة ، كل شخص يسحق الآخر بالكلمة واليد واللسان والفعل ، ومع ذلك انظر حولك تجد النفاق معششا في كل النفوس والأركان ، لأن شعبنا يعبد الأقوياء ، ويدوس الضعفاء ، وقد امتد النفاق ليكون للصوص والمنحرفين والأفاقين والكذابين ، ولم يعد قاصرا على نفاق الأقوياء والكبراء ومن بيدهم مصالح الناس وأقواتهم . قلّب وجهك تر النفاق منهجا له أصوله وقواعده ومخرجاته ، فقد صار بديلا للإخلاص والاستقامة والرشد والجدية ورضا الله . أقول لك : مات كاتب معروف وعالم مشهور قبل أسابيع ، فلم تهتم به الجامعة التي ينتسب إليها ، ولكن ابن أخته الوزير ، وابن أخته رئيس الجامعة الأخرى ، وأقاربه المهمين في جهات عليا هم الذين دار حولهم الاهتمام في سرادق العزاء ، وأعمدة الصحافة ، وبرامج الهواء .. أما الراحل الكريم فكان المناسبة التي أتاحت لجيوش المنافقين أن تدق الكعب وتضرب " تعظيم سلام " للمسئولين الكبار الذين لا يساوون جميعا بعض خالهم الراحل في علمه أو فكره ! ولكن القوم ترجموا المثل الشعبي الذي يتحدث عن كلب العمدة الذي خرجت القرية كلها لتدفنه يوم مات ، أما العمدة نفسه حين توفاه الله فلم يخرج أحد في جنازته ، وإنا لله وإنا إليه راجعون ...!

قلت لصديقي وقد أجهده الغضب : لا تغضب مني يا أبا خليل ؛ سأقول لك ما قاله خليل الرحمن : " إني معي ربي سيهدين" (الشعراء :٦٢). "رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين " (الشعراء : ٨٢) ، وأستأذنك لألحق بالطائرة كي أطوف إن شاء الله بالكعبة الزهراء علّ الله ييسر لي

الطواف ، ويُسخّر من يأخذ بيدي بعد أن أصبحت ضعيفا مجهدا ، لا أقدر على الكلام أحيانا .. ولله عاقبة الأمور .

***

عباد الرحمن .. وأخلاق العبيد !

سألني سائل : لماذا يحترم الشعب الفرعوني الجنسيات الأجنبية ويحتفي بها ، وفى الوقت نفسه يحتقر بعضه بعضاً ويزرى ببعضه إلا من كان مسئولاً يملك سوط السلطة أو نبوت الشرطة ؟
وكأنّ السائل يعتب علىّ ما كتبته من قبل في تحميل الفرعنة للشعب والحكام معاً ، ويُريد أن يُحمّل الشعب وحده المسئولية كاملة ، فهو الذي يصنع الآلهة ويعبدها ، وعليه أن يقبل ما يجرى له وفقاً لأمزجة الآلهة المصنوعة .
وقال لي آخر ونحن في صالة السفر بالمطار: انظر كيف يعاملون الأجانب ، ويبالغون في تكريمهم ، بينما المصري إلا إن كان ذا حيثية سلطوية أو منسوبة إلى السلطة تتم إجراءاته فوراً ، ويجد من يساعده ، ومن يوسع الطريق للباشا ، ومن يأخذ أوراقه ليتجاوز بها العجائز أمثالك أو من يتوكأون على عصا مثل عصاك !
حتى من كان مسئولاً سابقاً ، يصعب عليه أن يقف في الصف ، أو يبحث عن حقائبه بنفسه ، أو يدفع عربة الحقائب بيده . هناك من يأتي ، أو يحرص على من يأتي ليقوم له بكل شيء على أن يكون من غير عمال المطار أو موظفيه ، ليتحقق له التميز والمغايرة والحرص على " البريستيج " .. ويضيف المتحدث ، ألم تر الرئيس السابق كارتر ، وهو يمضى في مطارات واشنطن ولندن وشرم الشيخ ، وهو يدفع عربة الحقائب بيده ويقف في الصف مثله مثل غيره من الناس دون أن يعانى من مركب نقص أو إحساس بالدونية أو شعور بتورّم الذات ؟
شارك في الكلام مسافر كان يجلس قبالتنا ، فذكر أن المصري لا قيمة له في أي مكان إلا إذا كان مربوطاً بحبل السلطة أو الرشوة ، وأن العيون الزرق لها الأفضلية العليا على العيون السمر في شتى المواقف والمناسبات ، وضرب مثلاً أعادنا إلى الحادث الإرهابي في الأقصر قبل عشر سنوات أو أكثر ، حين عوقب وزير الداخلية على الهواء أمام الدنيا كلها ، وعاد راكباً قطارا يعد الفلنكات ويقطع المسافة إلى القاهرة في وقت طويل ، وكان قد ذهب إلى الأقصر في الطائرة السريعة مرافقاً للرئيس ! هل تعرف السبب ؟ كان الضحايا من أصحاب العيون الزرق ، أي من غير المسلمين ، وهؤلاء قيمتهم عالية للغاية ، ويجب التكفير عن الجريمة التي ارتكبت في حقهم بكل الوسائل ولو كانت الإطاحة بأكبر رأس في جهاز الأمن علناً وعلى رؤوس الأشهاد ! تأمل الفارق عندما جرت حوادث دهب ونويبع وشرم الشيخ ! لم يحدث شيء ذا بال ، لأن الأغلبية الساحقة من الضحايا كانوا من أصحاب العيون السود ؛ أي من المصريين البائسين ، وهؤلاء لا ثمن لهم ولا قيمة !
تدخل السائل الأول ، وأصرّ أن الشعب المصري يحمل في جيناته الآن ، بحكم التراكم التاريخي ، كرات دموية خاصة قوامها العبودية والقابلية للاستعباد ، تجعله يركع دائماً أمام القوة أو السلطة ، سواء كانت داخلية أو خارجية ، مادية أو معنوية ، والأمثلة كثيرة على ذلك عبر التاريخ ، وانظروا اليوم كيف يخضع أستاذ الجامعة لأمين شرطة أو ضابط صغير ، وكيف تكون الحظوة والتدليل لبوق إعلامي أو مطبل أجوف أو مشخصاتي أو زمّار مأجور على أهل العلم وقادة الفكر وروّاد الثقافة والعاملين في الحقول والمصانع والأسواق والمواقع المختلفة .. إن العنصرية تكاد تمزّق المجتمع وتفتك بمكوّناته ، وتظل متوهجة إلى أن تصطدم بالآخر الأجنبي ، فتختفي تماماً ، وتتحوّل إلى عبودية شاملة في اللغة والفكر والسلوك ، وتأمل تعامل السلطة القوية مع كيان الغزاة النازيين اليهود ، إنه انبطاح كامل ، لا يستطيع أن يرفع رأسه ولو بالكلام فحسب ، ناهيك عن أمريكا وبعض الدول العربية الغنية ! وتستطيع على ضوء ذلك أن تفسر ما يلاقيه المصري في الغربة من هوان واستضعاف واستذلال ، وهو ما حوّل بعض المصريين إلى منافقين محترفين يشي بعضهم ببعض لأصحاب الأعمال خوف انقطاع الرزق أو رغبة في الوصول إلى منفعة ، يستوي في ذلك العامل البسيط والخبير المتميز .

قال المسافر الذي يجلس قبالتنا ، أريد أن أشير إلى ما قاله الأستاذ الذي تحدث عن جينات العبودية أو القابلية للاستعباد ، التي تحدث عنها المفكر الإسلامي الراحل " مالك بن نبي " وإن كانت قد جاءت في سياق آخر (القابلية للاستعمار) ، والاستعمار والاستعباد مادتهما واحدة على كل حال ، العبودية في الإسلام جاءت من أجل الخالق سبحانه وحده ، وليس لأحد آخر ، بوصفه مالك الرزق والأجل حيث لا يملكهما سواه ، ومن يتأكد من ذلك ، فهو يعيش حرّاً نبيلاً في سلوكه وأخلاقه لأنه لا يخضع إلا لله وحده ، الذي قال جلّ شأنه : " وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ " (الذاريات : ٥٦ – ٥٨) .

ثم إن الحق سبحانه ، وصف المؤمنين به الذين يعبدونه بعباد الرحمن ، ووصفهم بأنهم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه وقد بشرهم بالجنة جزاء على عبوديتهم الحقيقية له ، حيث لم يعبدوا غيره أو يشركوا به أحداً من خلقه وهم في كل الأحوال أصحاب العقول المضيئة : " وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ " (الزمر : ١٧ – ١٨).

الإيمان يجعل العبودية لله شرفاً وميزة وطريقاً إلى الحرية في الدنيا ، والجنة في الآخرة ، أما أخلاق العبيد فهي تختلف تماماً لأنها أخلاق فاسدة ، ينسى أصحابها وجود الله ، ويعتقدون أن المخلوقات المماثلة هي التي تملك الرزق وتستحق العبادة . وهؤلاء هم الذين يُسيّرون المجتمع المصري الآن ، وينخرون جسده كالسوس ، ويعيقون تطوره ، ويطرحونه ذليلاً مهيضاً أمام الغرباء والفاسدين حتى بدا مُثلةً يعبث بها كل مغامر وانتهازي !

قال واحد من المسافرين ، وكان صامتاً طوال الحديث ، أراكم تتحاملون على الشعب المصري كثيرا؛ فأبناء هذا الشعب هم الذين حققوا ملحمة العبور في رمضان ١٣٩٣هـ (أكتوبر ١٩٧٣م) ، وهم الذين يبدعون ويعملون داخل مصر وفى الوطن العربي والعالم ، ويظهر منهم المتفوقون والناجحون الذين تباهى بهم الدنيا ، وأمريكا نفسها تضم آلافاً من المصريين المتميزين في الإنتاج والعمل والبحث والمجالات الإنسانية الأخرى .

انفعل جارى ، وأشار إلى المتحدث ، وكأنه يختم الحديث ، حيث أوشكت الرحلة ، وسمعنا النداء للتوجه إلى باب الخروج من الطائرة :

يبقى أن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا ، وأن الشعب الفرعوني من القوم الفاسقين ، فالعلو في الأرض والفسق لا ينتجان إلا هذا البؤس الذي نعيشه ولا حول ولا قوة إلا بالله . قوموا إلى طائرتكم يرحمكم الله .

***

تراث ممتد من القهر والعبودية !

هل يمكن أن نضع الإطاحة بوزير الري المصري الدكتور محمود أبو زيد تحت هذا العنوان ؟

أتصور أن الإجابة بالإيجاب . فالوزير فوجئ بإقالته ، وعرف الخبر بعد معرفة سائقه ، ونُزع كشك الحراسة قبل وصوله إلى منزله، وهو ما يؤكد على أن الشعب المصري يعيش القهر والعبودية منذ الأزل إلى أمد لا يعلمه غير الله .

لا أعرف وزير الري ، ولا علاقة لي به ، ولكنني أعلم مما تنشره الصحف ، ويقوله الناس : أنه عالم جليل ، خبرته نادرة في تخصصه ، وهو واحد من العلماء المعدودين على مستوى العالم ، ويشرف مصر والعرب في العواصم الدولية الكبرى ، ولم يقل أحد عنه سوءاَ ، ولم تشر إليه صحيفة بما يشين في سلوكه أو عمله أو علاقاته ، وهو رب أسرة جيد ، علّم أولاده ورباهم تربية حسنة ، وكانت كفاءته في عمله ، وقدرته الدبلوماسية محل إشادة ممن يعنيهم أمر المياه في مصر وخارجها .

لماذا تمت الإطاحة به إذاَ؟ واحتشدت الدنيا لتتحدث عن تغيير وزاري ، وهو ليس كذلك ، يرتبط بالرجل الشريف النظيف ؟ لقد أرادوا التغطية على الموقف باختراع وزارة (ميني وزارة !)مكافأة للسيدة التي أبلت بلاء غير حسن في أمور هامشية مثل الختان والنقاب وما أشبه سعيا لإلغاء الشريعة الإسلامية ، وتمكين المرأة التي تلد سفاحا من نسبة المولود إليها، والتضييق على المسلمين في الزواج والطلاق ، وتقيد أمرهما أكثر مما تقيدهما الأزمة الاقتصادية ، وتخريب العلاقة بين الرجل والمرأة المسلميْن عموما (لأنها لا تستطيع أن تقترب من غير المسلمين !) ، ثم إنها تريد تغريب المجتمع وثقافته الإسلامية ، لأنها متيمة بالغرب وأهله وثقافته المنافية للشريعة ، وبسيف القانون الذي تصنعه أغلبية مزورة تريد أن تفرض تشريعات مخالفة لمنهج الدين !

الشعب حتى اليوم لا يعرف الحقيقة التي جعلت " محمود أبو زيد – وحده –طريد الحكومة المصرية التي يتحدث الناس عن فشل أكثر وزرائها فشلا ذريعا .. ثم إن الإصرار غير العادي على الإطاحة لم ينتظر حتى يعود رئيس الدولة من قمة الرياض ، بل تم تأخير سفره – كما قالت بعض الأنباء – حتى يؤدي الوزير الجديد اليمين الدستورية !

قالوا إن ظروف الوزير الصحية كانت من وراء طرده ، بينما الوزير بدا في صحة (زى البمب) . وقال آخرون إن موقفه من مسألة توشكي وانتقاده للحكومة بسبب فشل المشروع كان دافعا لتغييره . وذهب فريق ثالث إلى القول : إن الوزير المطرود لم يرد على مسئول إثيوبي هاجم مصر في مؤتمر للمياه انعقد مؤخرا في شرق إفريقية ،ونُقل الموقف إلى المسئولين الأعلى مما حتم تأديب الوزير

وفصله من الوزارة . ونقل فريق رابع تصريحا للوزير وهو يغادر منصبه يقول فيه : إن الوقت غير مناسب للكلام .. .. إلى غير ذلك من تخرصات لم تقنع أحدا من الناس في مصر ولا العالم العربي..

فهل يليق أن يتم طرد الوزير بهذه الطريقة ؟

عندما يصرف صاحب مصنع عاملا أو مجموعة عمال " فإنه يلتقي بهم ويشرح لهم الأسباب ، ويشكرهم على ما قدموه ، ويطلب منهم المعذرة لعدم استمرارهم بسبب الأزمة الاقتصادية أو المصاعب التي تعترض مصنعه ، وقد يكافئهم للترضية . فما بالك بعالم كبير في مرتبة وزير له حضوره على مستوى العالم بأسره ؛ يتم طرده بطريقة يصعب وصفها ؟

نحن نعلم أن المصلحة العليا للبلاد تقتضي اتخاذ قرارات سريعة ومفاجئة ، ولكن الناس لا بد أن تعرف الأسباب وتعلم الضرورات التي حتمت اتخاذ القرار . في الحروب وحدها لا يسأل الناس عن القرارات ، وإن كان من حقهم بعدها أن يجدوا تفسيرا لكل قرار !

مؤكد أن الإنسان المصري بلا قيمة ، وأنه يعيش حياة العبيد من زمن بعيد ، وحين تنظر أمامك تجد التنكيل بصور شتي لا يتوقف بصفوة الوطن من العلماء والخبراء ، بينما الملوثون والانتهازيون والمنافقون وأشباههم يحظون بالرعاية والعناية والاهتمام ومحاولات تبييض وجوههم التي عليها غبرة ..

لقد قتل صاحب العبارة أكثر من ألف مصري بائس قبل ثلاث سنوات ، فتم تهريبه من صالة كبار الزوار .وكانت تهمته أنه علم ولم يبلغ !!!وداخ الناس في المحاكم يستجدون حقوقهم ، والقاتل يمرح سعيدا في ربوع لندن ، وقصره الفخم هناك يستقبل الكبار والصغار ، وترسل إليه السلطة محاورا لتحسين صورته تلفزيونيا على حساب الغرقى والمعدمين ،وإظهاره بمظهر التقى النقي الورع الذي يرعي حقوق البلاد والعباد ، أما مجدي أحمد حسين الذي لم يقتل أحدا ؛ فإنه يحاكم بسرعة الصوت أمام محكمة عسكرية ؛ لأنه دخل غزة من فتحات السور الذي قصفته طائرات العدو منتهكة السيادة المصرية ، ويتم حبس الرجل المجاهد سنتين ، مع أن جريمته مفخرة لكل مصري ، وهي التضامن مع أشقائنا في غزة ، وقد كانوا أمانة في أعناقنا فضيعناها !

إن التراث الممتد من القهر والعبودية يؤكد على وصف القرآن الكريم للأسلاف الذين خلفهم خلْف أسوأ وأضل سبيلا حين قبلوا العبودية لغير الله : " إنهم كانوا قوما فاسقين " !، والفسق هو الخروج

عن الفطرة التي تأبى الاستعباد والذل ، وعدم استخدام العقل للحصول على الحرية والكرامة ، ثم الرضا بما يفعله الفاسدون والاستسلام له !

قبل قرن وربع قرن تقريبا ؛ كتب جمال الدين الأفغاني يخاطب شعبنا التعيس :

" إنكم معاشر المصريين ، قد نشأتم في الاستعباد ، وربيتم في حجر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم . وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين ،وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين ، تسومكم حكوماتهم الحيف والجور ، وتنزل بكم الخسف والذل ، وأنتم صابرون ، بل راضون ، وتستنزف قوام حياتكم ، ومواد غذائكم التي تجمعت بما يتحلب من عرق جباهكم بالعصا والمقرعة والسوط ، وأنتم معرضون . فلو كان في عروقكم دم فيه كريات حيوية ، وفي رءوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية لما رضيتم بهذا الذل ، وهذه المسكنة . تناوبتكم أيدي الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ، ثم العرب والأكراد والمماليك ، وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ، وأنتم كا لصخرة الملقاة في الفلاة لا حس لكم ولا صوت .

انظروا أهرام مصر وهياكل ممفيس ، وآثار طيبة ، ومشاهد سيوة ، وحصون دمياط ، فهي شاهدة بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم . هبوا من غفلتكم ..! أصحوا من سكرتكم ..! عيشوا كباقي الأمم أحرارا سعداء .."

وواضح أن نداء الأفغاني لن يجد صدى كبيرا لدى المصريين الآن ، فهم مشغولون في طوابير الخبز والمظالم والأحزان ، وليس لديهم وقت لمقاومة العصا والمقرعة والسوط ؛ فهم مُعْرضون عن ذلك ، لأن الغزاة النازيين اليهود في الوطن المحتل يقومون باستخدام العصا والمقرعة والسوط لإلهاب ظهورنا وشق جلودنا ، وفي الوقت نفسه يقولون لعصاباتهم نحن نغير الوزارة بالانتخابات ، ونسقطها بالانتخابات ، ونشكلها بالانتخابات ، وحين يرتكب وزير أو رئيس جريمة تتم محاكمته على رءوس الأشهاد ، بعد استجوابه في الشرطة مثل أي فرد آخر في وطن الاحتلال !

ينبغي ألا نأسى على وزير الري المقال ، وما جرى له ، فلن يكون الأخير ، كما لم يكن الأول ، لأن العصا والمقرعة والسوط ، تعمل في حقل شديد الاتساع ولا تجد مقاومة ! إنه تراث ممتد من القهر والعبودية !

***

حكم القانون .. وشريعة الانتقام !

أُصاب بالأسى والألم عندما أتأمل السلوك النازي اليهودي لحماية الغزاة داخل الكيان الغاصب ، وخارجه وأقارنه بما يحدث مع المواطن المصري داخل مصر وخارجها .

العدوّ النازي اليهودي يشنّ الحروب ويسفك الدماء ويقتل الأبرياء من الأطفال والنساء والشيوخ ، ويدمّر المساجد والبيوت والمؤسسات ، دون أن يبالى بأية عواقب ، والراية التي يرفعها هي حماية الغزاة ، كما يردّ بقوة ساحقة على من يخدش سكون المغتصبين ، ولو بلعبة البمب التي يلهو بها الأطفال ، وفى سبيل إنقاذ جندي واحد من القتلة ، يشنّ حرباً ضارية بالطائرات والدبّابات ، ويُقايض بمئات الأسرى لافتدائه وتحريره من يد المقاومة !

الوضع على الجانب المصري معكوس ، ومحزن ومؤلم ، لأن المواطن المصري مهما بلغ من علم وارتقت مكانته لا قيمة له في الداخل أو الخارج ، ما لم يكن من رجال السلطة الفاسدة وأعوانها ..

وعندما يُفاجأ الشعب المصري مثلاً أن " مجدي أحمد حسين " قُدم إلى محكمة عسكرية سجنته سنتين وغرّمته بمبلغ كبير؛ لأنه عبر الحدود إلى غزة من الفتحات التي أحدثها العدوّ باستباحته للسيادة المصرية ، في الوقت الذي يتم فيه تهريب صاحب العبّارة الغارقة بأكثر من ألف وثلاثمائة إنسان ، ويُحاكم غيابياً أمام محكمة جنح سفاجا بتهمة بسيطة يُبرّأ بعدها ، ويتم تهريب من استوردوا المبيدات المسرطنة القاتلة ، وتهريب لصوص المال العام الذين يطلق عليهم رجال القروض ، ويتم تبرئة الفاسدين في أكثر من مجال ، فإن الأسى والألم والغضب يخيم على النفوس والقلوب والضمائر الحية ، ليس في مصر وحدها بل في العالم كله ..

إن سرعة المحاكمة مع إصدار الحكم في أقل من أسبوع ضد رجل اسمه " مجدي أحمد حسين " ذهب للتضامن مع شعب غزة مثل آخرين كثيرين ؛ عبروا الفتحات والأسلاك وذهبوا وعادوا دون أن يستوقفهم أحد أو يلومهم أحد ، لأنهم ليسوا مجدي أحمد حسين صاحب الرأي والموقف والفكر ، هذه السرعة تثير في العقول والرؤوس آلاف العلامات المستفهمة ، والمستفسرة حول مصير هذا الوطن الذي ينتقى ويصطفى ويحاسب من يشاء ، ويترك ويتسامح ويتساهل مع من يشاء . !

هل هذا حكم القانون .. أم شريعة الانتقام ؟

ماذا يعنى التمييز العنصري بين المواطنين – أولاد الست وأولاد الجارية – في بلد يزعم أنه يعيش أزهى عصور الديمقراطية ولا يصادر رأيا ولا يكسر قلما ؟

إن آلاف الفاسدين والمجرمين الذين يحتكرون الصناعات والأقوات والبضائع ، وينهبون أموال الدولة وأراضيها ، ويعيثون في الأرض فساداً وإجراماً ، ولا يسائلهم أحد ، ولا يحاكمهم أحد، بل ويمارسون

حياتهم المترفة التي تشبه ألف ليلة في قصورهم الفارهة ومرابعهم المثيرة ويستوردون أفخم الأطعمة الساخنة بالطائرات من بلاد الغرب ، ويخرجون ألسنتهم ، بل يرفعون أحذيتهم في وجه الملايين من الفقراء والمحرومين الذين يعيشون في قاع المدن والقرى ، لا يجدون الكفاف ، ولا يحصلون على الرغيف إلا بشق الأنفس ، وهؤلاء هم الذين تطبق عليهم الأحكام العسكرية والمدنية والاستبدادية . !

لقد صار معلوماً أن من يريد المشاركة في خدمة الوطن ، خارج النخب الفاسدة ، لابد أن يدفع ثمناً باهظاً يكلفه شبابه وأسرته ومستقبله ، فضلاً عن أحلامه وآماله بالنسبة لوطن جميل ورائع وقوى ومنتصر ..

لماذا يحاكم الإخوان المسلمون أمام المحاكم العسكرية ، وهم لم يسرقوا ولم ينهبوا ولم يغرقوا أبناء مصر الكادحين في عرض البحر، ولم يستوردوا أسمدة مسرطنة تفرى الأكباد والكلى والمسالك البولية ؟ ولم يبيعوا الدم الفاسد ، ولم ينصبوا على أغنياء زمن الفساد ، ولم يقترضوا الملايين والمليارات ويهربوا بها إلى لندن وباريس وسويسرا وأمريكا وكندا .. ولم يبيعوا امتحانات الثانوية ولم يتسببوا في حوادث القطارات والسيارات والمزلقانات والطرقات ، ولم يبيعوا مصانع البلد خردة ، ولم يُسقّعوا الأراضي المنهوبة ، ولم يتاجروا في المخدرات والأعضاء البشرية .؟!

لماذا يُحاكم أيمن نور ، وتشهر به الصحف الحكومية وتنال من عرضه في إسفاف رخيص وابتذال مشين ، مع أن غيره هو الذي يستحق المحاكمة على الفساد والنهب والإجرام ؟

لماذا يتم الانتقام من عبد الوهاب المسيرى بإلقائه في الصحراء وعدم علاجه على نفقة الدولة ، وهو علم من أعلامها تفاخر به الأجيال والأمم ؟

لماذا ؟ .. لماذا ؟ إلى مالا نهاية من الأسئلة التي يمكن طرحها وتحتاج إلى جواب حقيقي ..

أفهم أن يكون النظام غير راغب في المشاركة الحقيقية ، ولا يريد معارضة ولا مناقشة ، ويقتنع برأيه ورجاله وحدهم ، فلماذا يدعى الديمقراطية ؟ لماذا يطلب من الناس أن يتخلوا عن سلبيتهم ، ويقوموا بواجباتهم تجاه الوطن ، رأيا وشورى وفكرا ؟ هل يريد اصطياد المخالفين ، أو فرز المجتمع ؟

لا أرى أنه يحتاج إلى ذلك فلديه جهاز يعلم دبة النمل وملفات بكل من يشتم منه القدرة على التفكير ، وطالما كان الخيار الوحيد ؛ هوا لاحتكام إلى العصا الغليظة تشهرها السلطة في وجه كل معارض وصاحب رأى ، فمن باب أولى الإعلان بوضوح وصراحة أنه ليس في حاجة إلى مشاركة أو رأى أحد غير رجاله وأعوانه . عندئذ يلزم الناس بيوتهم ، ويغلقون أفواههم ، ويكسرون أقلامهم ، ويمزقون صحفهم

إن الحياة السياسية الطبيعية تقتضي التوافق بين فرقاء الوطن على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم وعناصرهم .. والتوافق يعني توزيع الأدوار ليحصل الوطن على أكبر قدر من الفوائد داخليا وخارجيا ، ولكن لغة العصا كانت أقوى اللغات وأفصحها ...! وكان المعارضون الذين يعملون خارج السيطرة الأمنية أول من تطبق عليهم شريعة الانتقام وليس حكم القانون.

في الكيان النازي اليهودي الغاصب على أرض فلسطين المحتلة ، يحاكمون الحكام ، ولا يتعرضون لشريعة الانتقام من جانب السلطة . السفاح النازي اليهودي "إيهود أولمرت" استدعى حتى الآن أربعة عشرة مرة للتحقيق أمام الشرطة قبل الانتخابات وبعدها ، ومع ذلك لم ينتقم – وهو رئيس السلطة – ممن حققوا معه أو يفصلهم أو يشهّر بهم ، ولكنه يُعامل قضائياً مثل أي غاصب في الكيان الاستعماري ؛ بل إنهم يسمحون للأسرى الفلسطينيين أن يستفيدوا بالقواعد القانونية من دفاع وإطلاع على الأوراق وتأجيل وطلب شهود وتدخل منظمات حقوق الإنسان ، وهو مالم يتوفر للمواطنين المصريين المدنيين الذين يحاكمون أمام المحاكم الاستثنائية والعسكرية .

إن شريعة الانتقام التي تعيش مصر تحت رحمتها لن تبنى وطنا قوياً متفوقاً منتصراً ، وهى كفيلة بتدمير البقية الباقية من تماسك الشعب وصلابته ، وتبشر بحزن عظيم ، نسأل الله العافية .

***

يمشون على الأرض هونا!

ينهض الشعب المصري ، وبالتالي الشعوب العربية ؛ إذا كان ارتباطه بالدين وثيقاً وصحيحاً . إذا ضعف هذا الارتباط ووهن وكان مزيفاً ، فإنه يهبط إلى الحضيض ، ويشرب الهزائم حتى الثمالة ، ويتحول إلى حالة من الرّق لا مثيل لها في العالم . لذا أدرك الغزاة والطامعون – على امتداد الزمان - أهمية تفكيك الدين أو تشويهه في وجدان الشعب والأمة !

والارتباط بالدين ، ليس مجرد أداء الصلوات والعبادات الأخرى أداءً آليا بارداً خاوياً من المعنى والمضمون أو الهتاف بها والتعبير عنها تعبيرا شكلياً لا روح فيه ، فهذا تدين شكلي بعيد عن حقيقة الدين ، والعبادات ، ليست كلها الإسلام ، وإن كانت مظهراً له ، فالعبادات جزء رئيسي من دين شامل تلعب فيه الأخلاق والسلوكيات والمعاملات والعلاقات الأسرية والاجتماعية دوراً أساسياً في تشكيل حياة المجتمع المسلم وصناعة مستقبله ووجوده .

ولا يتسق وضع المجتمع الإسلامي في ظل علاقات تقوم على الاستعباد والنفاق والولاء لغير الله ، فهذا المجتمع لا بد له من الحرية الكاملة التي ترتبط بالشهادتين (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ، وهى حرية يتخلص فيها المسلم من العبودية لغير خالقه ، وإلا تحول إلى الشرك ومفارقة الإيمان ، ودخل في دائرة أخرى تختلف عن دائرة الإسلام الحق ..

هزائم الأمة الحضارية والعسكرية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالبعد عن الإيمان الحقيقي . قد يقول قائل إن غير المسلمين يتفوقون وينتصرون ، وهذا صحيح ، لسبب بسيط ، وهو استمتاعهم بالحرية أو التوافق عليها ، فلا يعبد بعضهم بعضا ، ولا ينافق أحد منهم الآخر ، ولا يواليه .. أما شعبنا ، فإن انهزامه يأتي نتيجة لفقدانه الحرية التي يصنعها الإيمان ، ثم إنه – وفقاً للعبودية لغير الله – لا يستطيع أن يتوافق عليها ، وهنا تكمن مأساته وأحزانه أيضاً !

في المراحل التي يتحرر فيها الشعب من عبودية البشر ، أو الفراعنة كما يحبون تلقيب أنفسهم ، ينتصر ، ويُحقق أمانيه . تأمل انتصاراته على التتار والصليبيين واليهود ، والظروف التي أحاطت بها ، وأبرزها نهضة الإيمان ، التي وصلت ذروتها في الشهادة أو الرغبة فيها إرضاء للخالق قبل المخلوق .. ثم تأمل الهزائم وملابساتها التي ارتبطت بقوة مع القهر والعبودية للفراعين ، أيا كانوا ، وأيا كانت طبقتهم !

ولم يكن من قبيل البعد عن فكرة " الحرية " التي تعنى العبودية لله وحده في الإسلام ، أن تركز سورة الفرقان في القرآن الكريم على وصف عباد الرحمن بصفات شتى تجعلهم متحررين تماماً من كل متاع الدنيا ومغرياتها وشهواتها وطغاتها أيضاً :

> تأمل مثلاً وصفه سبحانه لعباده بالمشي على الأرض هوناً " وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا " (الفرقان : ٦٣ – ٦٦) .

إن المشي هوناً ، ومسالمة الجاهلين والبعد عن السفهاء ، ثم الحرص على السجود والقيام والدعاء بصرف العذاب ، قيم إسلامية تتسق مع الطبيعة الحرة للمسلم الذي يعبد الخالق وحده ، ولا ينحني لأحد سواه .. وتندرج مع ذلك القيم الأخرى التي وردت في الآيات التالية لوصف عباد الرحمن : " وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا " (الفرقان : ٦٧) ، فالاقتصاد في الإنفاق ، والتوسط فيه تعبير عن موقف حرّ يجعل المسلم لا يبذر ولا يقتر ، ولكنه يتحكم فيما يملك ، ويحافظ على الإرادة التي تحميه من السفه والبخل ، ثم تأتي الآية التي تُذكّر بالعبودية للخالق وحده ، ولا تجعل المسلم يعبد غيره ، مهما كان مستبداً طاغية ، متجبراً مستكبراً ، فهو في كل الأحوال لا يملك الرزق ولا العمر اللذين يملكهما الخالق ، ولا يملكهما أحد سواه ، وفى ذلك تمام الحرية ، حيث يستعيد المسلم وجوده الإنساني ، ويحرم الفرعون من تجاوزه لبشريته وتوهمه أنه إله يملك أقدار الناس ، وفى الحديث الشريف الذي أخرجه البخاري ومسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه : " قلت يا

رسول الله ؛ أي الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً ، وهو خلقك ، قلت ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك . قلت : ثم أي ؟ قال : أن تزني بحليلة جارك .. " .

وقد نزلت الآيات التالية تصديقاً للحديث الشريف . قال تعالى :

" وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا " (الفرقان : ٦٨ – ٧١) .

وترتبط بحرية المسلم حرية الناس وحماية أرواحهم ؛ فلا يجوز لعباد الرحمن أن يقتلوا أحداً إلا بالحق ، لأن قتل النفس محرّم بأمر الله ، وكذلك الزنا ، لأن تحريمه على المسلم يمتد إلى تحريمه على الآخرين فلا يستبيحون حرمته ولا يلوثون عرضه .. ومن يخطئ فله عذاب مضاعف خالد فيه امتهان وإذلال ، وقد فتح الخالق باب التوبة للمخطئين عن جهل أو ضعف ، شريطة ألا يعودوا إلى الخطأ ، وأن يتأكد إيمانهم ويعملوا عملاً صالحاً ، لينالوا العفو والغفران والرحمة .

ثم تتوالى الآيات في بيان صفات عباد الرحمن فتتحدث عن الذين لا يشهدون الزور ، ويمرون باللغو كراما ، ويخرون سجداً حين يذكرهم بآيات ربهم إيماناً واحتساباً وليس صماً وعمياناً كما يفعل المنافقون المشركون . والزور في الآية موضع تفسيرات عديدة ، فهو الشهادة الباطلة ، وهو حضور مواضع الكذب ، وهو حضور كل موضع يجرى فيه مالا ينبغي ، وهو حضور مجامع الشرك والفسق وأهل الشر ، وهو حضور مجالس الزور التي يُقال فيها الزور على الله تعالى وعلى رسوله – صلى الله عليه وسلم – ومشكلتنا الرئيسية في بلادنا هي الزور بمعنى الكذب والنفاق ، ابتغاء منفعة أو مصلحة من الآلهة البشرية ، كبرت أو صغرت ، مما دفعنا إلى مؤخرة الأمم ، مع أننا خير أمة أخرجت للناس حين تلتزم بصفات عباد الرحمن ، وحين تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، بالمفهوم الجامع وليس القاصر المحدود !

" وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا " (الفرقان : ٧٢ – ٧٤) .

هذه هي الأمنية النهائية أو الغاية التي يتشوق إليها عباد الرحمن ، أن يكونوا قدوة للمتقين ، يقلدهم الناس ، ويأتمون بهم ، لما يتوفر فيهم من صفات النقاء والنضج والحرية ..

لا يمكن للمنافقين والأفاقين والمرتزقة أن يحسبوا أنفسهم على الإسلام ، وأن يكونوا من المؤمنين الصادقين ، لأنهم ببساطة شديدة يعبدون إلهاً غير من خلقهم ، وينتظرون منه منفعة أو مصلحة أو معيّة ..

المسلم الحقيقي حرّ يعيش في مجتمع أحرار ، يفيض بالطهارة والرقى والعمل الجاد والتراحم والتضامن والمساواة والأمل والقدوة وإمامة المتقين .

***

قوة هيفاء .. وقوة الخنازير ؟!
أقارن سلوك بعض الناس في بلادي بين الفرح والمرح ، والكسب والربح من ناحية ، وبين عذابات معظم الناس وأحزانهم بسبب ما يجري في أفق الوطن المتعثر من ناحية أخرى ،فأتساءل

لماذا يعب الفريق الأول من متع الدنيا وملذاتها بلا حساب ولا يدري بشيء اسمه الوطن ، ولماذا يعيش الفريق الآخر والألم رفيقه والقهر صديقه أني توجه وحيثما كان .. لماذا كانت هذه المفارقة ؟

أظن أن سبب المفارقة واضح ! لا يحتاج إلى كثير من التفكير . فالوطن الذي يفتقد أهله حق المشاركة في تقرير مصيره ، وصنع مستقبله يعيش خللا واضحا يغذيه الظلم والاستبداد والانتهازية والفساد والرشوة والتخلف والكوارث الاجتماعية والبيئية ... إلخ !

لذا لم أعجب حين ذاع وانتشر وهيمن حديث الزفاف الأسطوري للسيدة "هيفاء وهبي " على أحد الأشخاص ، وتكلف أكثر من خمسين مليونا من الجنيهات في وقت يتقاتل فيه عامة المصريين على بضعة أرغفة يومية مقررة ؛ تشهدها الأفران وأماكن التوزيع .

من حق كل مصري أن يفعل ما يشاء ، لكن ليس من حقه أن ينتهك السياق الاجتماعي ، ويستفزه بسلوك فاجع وقاتل بحثا عن الاستعراض وإثبات الذات و؛ وتحديا لكل المواضعات ، لدرجة أن رأينا رئيس الدولة يترك القضايا الكبرى التي كان يتحدث عنها ليشير إلى ما يسمي " الفشخرة " في إنفاق بعض الأشخاص . و" الفشخرة " لمن لا يعلم تعبير عامي عن سلوك مستهجن يتم فيه الإنفاق بسفه وابتذال واستهانة بالمال والناس جميعا !

ومن المؤكد أن من يكسب قرشا بعرق جبينه ؛ يصعب عليه أن يذهب هذا القرش في غير موضعه ، أو يكون وسيلة لاستعراض القوة والهيمنة ، ولكن ما نراه في زفاف السيدة هيفاء وغيرها تعبير آخر ، يؤكد أن هناك من يكسبون بسهولة وبساطة ، وتتدفق عليهم الملايين دون أن يكدّوا أو يتعبوا أو ينفقوا جهدا حقيقيا أو وقتا صعبا في تحصيلها والعمل من أجلها!

في السنوات الماضية على سبيل المثال وصل سعر طن الحديد إلى ما يقرب من تسعة آلاف جنيه ، كان يدفعها للضرورة القصوى البسطاء من كدّهم وعرقهم ليغتني أصحاب المصانع والتجار بسهولة شديدة وسرعة أشد ، الطن الذي يتكلف تصنيعه أقل من ألف جنيه يباع بتسعة آلاف تقريبا ، أي يتضاعف سعره تسع مرات ، ومن يصنع مليون طن حديد ، يستطيع أن يكسب تسعة ملايين ، ومن يصنع مائة مليون طن يكسب تسعمائة مليون ، وهكذا .. وحين استيقظت بعض الجهات المسئولة مؤخرا ، وفتحت باب الاستيراد انخفض السعر للطن الواحد من تسعة آلاف إلى ثلاثة آلاف ، بحكم ما يتكلفه الطن المستورد من نقل وشحن وجمارك وإكراميات وخلافه ،ومن المتوقع أن ينخفض السعر أكثر إذا تمسك الناس – كما فعلوا منذ أيام قليلة – بعدم الشراء !

نستطيع أن نقيس على الحديد السلع الأخرى التي ارتفعت ولم تهبط بعد ،مثل الأسمنت والخشب والسيارات والمواد الغذائية والأدوات الكهربية والمنسوجات والأسمدة والمبيدات الكيميائية والأدوية وغيرها .

النقطة المركزية في المسألة أن السلطة البوليسية الفاشية تركت من يعتصرون الوطن من تجار الحديد وصناعه ، وأمثالهم من تجار وصناع الأسمنت والخشب وبقية السلع ، وآخرين ممن يقترضون مئات الملايين من البنوك ويحتكرون السلع والبضائع ، ويستولون على أراضي الدولة بآلاف الأفدنة ، ويتحكمون في التشريع وصناعة القوانين وأمور أخرى ، يفعلون ما يشاءون دون محاسبة أو ردع ؛ حتى تغولوا وتوحّشوا ، وتصرفوا من منطلق أنهم وهم الأقلية الضئيلة الفاسدة صاروا أصحاب البلد الذي يملكونه بأكمله، ومن حقهم أن يلعبوا بالأغلبية كما يريدون ،وأن يجرحوا مشاعرها ويصدموا أحاسيسها ؛ بالوسيلة التي يحبون ،ولهم من الوسائط الدعائية والصحفية ما يكفي للدفاع عن تغولهم وتوحشهم ،ولم يعد الأمر قاصرا على القنوات التلفزيونية الخاصة والصحف التي تسمى مستقلة ، بل امتد إلى صحف السلطة وقنواتها ، فهم يتحكمون في تعيين رؤساء التحرير ومديري القنوات والأبواق التي تتكلم باسمهم وتدافع عن تخريبهم للوطن وسرقته بالقانون ، فضلا عن تحويل الدفة لمهاجمة الشعب المصري البائس واتهامه بأنه سبب المشكلات التي يعانيها لأنه يكثرمن الإنجاب والمواليد ؛ دون اتهام الفاسدين الكبار الذين يقننون السرقات والاحتكار والفساد وبناء الأضرحة لتحويل أقاربهم إلى أولياء لله صالحين !!!

لقد صار الاسم الكريه للتجارة - أعني البزنس – شعار المرحلة ،ولو كان ذلك على حساب الجسد الإنساني ،وما أظن السيدات اللاتي تتم المتاجرة بأجسادهن تحت عنوان (الفن) ؛ إلا سلعة تدر دخلا حراما على من ارتضوا الكسب السريع ، ولم يوفروا حرمة الجسد الإنساني ، وصار " الفن المظلوم " مثلما صار " الاستثمار الممنوع " لافتة رديئة ،وشارة كريهة ،وعنوانا قبيحا ، تفضحه "الفشخرة" التي تحدث عنها رئيس الدولة في خطاب عام وعلني أمام العالم كله ، وصار أصحابها مراكز قوى ، بل مراكز فساد تهين الشعب البائس بتصرفاتها المستفزة ،ولا تبقي على أثر لكرامته وإنسانيته بسلوكها الأحمق !

إن زواج البيزنس الحرام مع الفن الحرام ، يقود الشعب المظلوم إلى مهاوي الهلاك ، حيث يمثل هذا الزواج استعراضا للقوة الغشوم التي لا يردعها عدل ،ولا يوقفها نظام ، ولا يخيفها قانون ..

وإذا كان الشعب المصري قد أذهلته قوة " هيفاء " – رمز هذا الزواج – فإن قوة الخنازير لا تقل عنها تأثيرا وتحرشا بهيبة السلطة والشعب المسكين جميعا !

تصوروا أن الدولة تتعرض بكل من فيها لمرض خطير ، يمكن لو تحول إلى وباء – لا قدّر الله – أن يهلك الحرث والنسل ، ومع هذا يصر مليارديرالزبالة وشيعته على تحدي السلطة وإذلالها أمام العالم ، فلا تستطيع تصفية بؤر الخنازير إلا بعد استئذان الكنيسة والكهنة ، وذهاب وزير الصحة إلى الأنبا في زيارة تستغرق ساعتين ، ثم الاحتماء بنائبة طائفية تتقدم بمشروع قرار في مجلس الشعب يطلب من السلطة تصفية الخنازير حرصا على أرواح البشر ؟ أي هوان تعيشه السلطة إزاء أمر جلل يهدد وجود الشعب بأسره فتتعامل بنعومة بالغة غير مسبوقة ليرضى عنها مليارديرات الزبالة والخنازير من أجل أن يوافقوا على قرارها؟

ومن المفارقات أن تخرج صحف التعري والسيراميك لتتهم المسلمين – وهم الأغلبية الساحقة – بالطائفية والتعصب ، لأن نائبا مسلما رد على نائبة طائفية متعصبة حين تحدثت بفظاظة وغطرسة عن خروج عشرة آلاف زبال ليأكلوا المسلمين إذا اقتربوا من خنازيرهم ؟

وتسكت صحف التعري والسيراميك عن إعلانات خونة المهجر وتهديداتهم للدولة والشعب المصري بالويل وللثبور وعظائم الأمور إذا اقتربت السلطة من خنازيرهم المقدسة ؟ يا للعار !!

السلطة التي لا تكف عن ملاحقة أفراد الحركة الإسلامية والقبض عليهم وإلقائهم في المعتقلات إلى ما شاء الله ،وتقديمهم للمحاكمات العسكرية ، ومصادرة كتبهم ومكتباتهم ودور نشرهم وأموالهم ؛ تقف عاجزة أمام قوة الخنازير وتسترضيهم من خلال مسئوليها ووسائل دعايتها المباشرة وغير المباشرة ؟

إن الأغلبية التي يسميها المرتزقة طائفة ، ترفع يديها إلى السماء لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا

خلايا الدفاع عن التمرد الطائفي !

ما تكاد تقع حادثة في مكان به نصارى إلا وتهب الخلايا اليقظة والنائمة لاتهام المسلمين بارتكاب الحادثة ، وإظهار النصارى في ثياب الحملان الوديعة البريئة . المسلم دائماً ظالم ومتعصّب

ومعتد ، أما الطائفي المتمرد فهو الإنسان الطيب الوديع الذي يشبه النسمة الرقيقة ، يتعرض للظلم والعدوان والتعصّب ، ويقابل ذلك بابتسامة إنسانية عريضة ، تغفر للآخر ظلمه وعدوانه وتعصّبه ! هكذا تصوّر الخلايا اليقظة النائمة ممن يحملون أسماء إسلامية ، حوادث التمرد الطائفي التي يقوم بها خونة الداخل والخارج !

في حادثة السيارتين أمام كنيسة العذراء بالزيتون (أوائل مايو ٢٠٠٩) ، خرجت أبواق مأجورة تتهم المسلمين بإعداد السيارتين وتزويدهما بالمتفجرات لقتل النصارى الذين كانوا يشاركون في أحد الأفراح بالكنيسة . ومع تضارب الأنباء حول طبيعة التفجيرات ، فإن القوم استبقوا التحقيقات والقضاء ، وأصدروا أحكامهم الإجرامية إرضاءً للمتمردين وتملقاً لهم ، وفتحوا المنابر الورقية والتلفزيونية والإذاعية ، فضلاً عن مواقع الخيانة على الشبكة الضوئية ليعبروا عن سخائمهم وضغائنهم ضد الإسلام والمسلمين ، لدرجة أن يقول أحد المذيعين عن المسلمين " شوية العيال اللي حاطين الأقباط في دماغهم " ويصف أئمة المساجد بمشايخ الجوامع الذين يسمون الأقباط بالنصارى ويكفرونهم ، ويحمل على المدرسين الذين يشحنون التلاميذ ضد أخوة الوطن ، والإرهابيين الذين قتلوا الجواهرجي واعتدوا على كنائس الإسكندرية ...

المذيع الجاهل المأجور – وهو وصف حقيقي وليس سباباً أو قذفاً – لم ينتظر حتى يصدر القضاء حكمه ، على الجاني أو المتهم المفترض أنه مسلم من وجهة نظره ، ولكنه استبق القضاء ، وتصوّر أنه سيرضى المتمردين الطائفيين حين يخرج في برنامجه القمعي ليدين الإسلام والمسلمين ، ويوجه التهم ذات اليمين وذات اليسار ، ولم يسأل نفسه سؤالاً بسيطاً : لماذا لم تقع حوادث التمرد الطائفي إلا بعد هزيمة مصر عام ١٩٦٧م ، ومع مجيء مسئول الكنيسة الحالى الذي جعل من نفسه أو جعل منه الأمريكان رئيس جمهورية موازية ؛ يأمر بالحبس والاعتقال ويضع في وادي النطرون من يخرج على سلطته الزمنية التي اكتسبها بقوة التمرد ؟

المذيع جاهل لأنه لا يعرف ما يجرى في بلده ، وما يخطط له في ظل النظام البوليسي الفاشي الذي تفرغ لمطاردة الإسلام وإقصائه بل إلغائه في المجالات المختلفة ، وحرم كل من يتبنّى التصوّر الإسلامي من الوظائف المهمة ، بل وغير المهمة ، ووضع القوانين الظالمة وغيّر الدستور ليقطع الطريق عليه إذا فكر في دخول المجالس النيابية أو الشعبية .

والمذيع جاهل حين نسى أن القرآن الكريم هو الذي وصف أتباع المسيح في مصر وغيرها بالنصارى ، والآيات الكريمات عديدة ، يستطيع أن يرجع إليها ، وقد وصفهم مع اليهود بأهل الكتاب . فالوصف بالنصرانية التزام بمنهج الإسلام ومصطلحاته ، وليس اضطهاداً لأتباع المسيح عليه السلام ، أو من يفترض أنهم كذلك ، فأتباع المسيح يفترض أنهم طيبون متسامحون ، لا يتمردون على مواطنيهم – وخاصة إذا كان هؤلاء يمثلون الأغلبية الساحقة – ولا يخططون لإهانة دينهم أو تمزيق بلادهم ، أو إشاعة الفوضى غير الخلاقة ، أو تحدى السلطة والنظام العام ، أو التشهير برئيس الدولة ، واستقباله بالمظاهرات الإجرامية عندما يزور الولايات المتحدة ، والادعاء الكاذب بأنهم مضطهدون ، وبناتهم تُخطف ، ومحرومون من الحرية والعبادة والعمل وتربية الخنازير ؟!

والمذيع جاهل حين يدعى أن المدرسين في التعليم العام يشحنون التلاميذ ضد أخوة الوطن ويصفونهم بالكفر والإلحاد . لسبب بسيط جداً ، وهو أن الحكومة لا تعلّم الإسلام في الواقع العملي الحقيقي . حصة التربية الدينية التي تقررها الحكومة للمسلمين والنصارى لا قيمة لها ولا كيان ، لأن مدرسي المواد الأخرى يستولون عليها ، لشرح دروسهم في الرياضيات والكيمياء والفيزياء واللغات الأجنبية ، ومادة التربية الدينية لا يرسب فيها طالب مسلم أو طالب نصراني ، لأنها لا تضاف للمجموع ، ومعظم المعلمين في التربية الدينية الإسلامية لا يحفظون القرآن الكريم وليست لديهم ثقافة إسلامية عميقة ، بل إن بعض المدارس تخصص حملة دبلومات الصناعة والزراعة والتجارة للقيام بتدريس هذه الحصة التي تسجل صوريا في جدول الحصص الأسبوعي ، والتردي الخلقي الحاصل الآن نتيجة لعدم تدريس التربية الدينية الإسلامية بالشكل المطلوب الذي يهذب الأخلاق وينتصر للحق والخير والجمال .

إذا صاحبنا المذيع الجاهل يفترى على المدرسين المسلمين ، ويدفعه جهله الساطع إلى اتهام الناس بالباطل ليرضى خونة الداخل وخونة الخارج من المتمردين الطائفيين الذين ينفذون الأجندة الأمريكية الصهيونية لتمزيق الأوطان العربية ، وأذكّر المذيع الجاهل بما حدث في جنوب السودان ، وتيمور الشرقية ، وما يحدث في أماكن أخرى يتم فيها طبخ الجريمة (ليس المؤامرة) على نار هادئة ..
والمذيع الجاهل مأجور ، حين يضع مصالحه ومنافعه في مقابل الإسلام ، ويتهم المسلمين بقتل الجواهرجي في الزيتون ، ويتنكر للردود التي ردّ بها عليه زميله الصحفي الذي يشاركه في برنامجه المأجور المسموم . إن زميله الصحفي تحدث عن الشهداء المسلمين الذين راحوا ضحية عدوان من متمردي النصارى ، وليس آخرهم فلاح " أبو فانا " الذي لم يتحدث عنه المذيع الجاهل أبداً ، ولا عامل الوايلى الذي قتلوه وقطعوا ذراع طفلته وجرحوا زوجته التي أسلمت ، ولا ضحايا الإسكندرية (آخرهم فرج التاجي الذي قتله نصارى وُصفوا بأنهم " مسجلين خطر " في منطقة كرموز) ، وراح خونة المهجر يصفون القتلة بالأبطال !
المذيع الجاهل مأجور لأنه يعلم جيداً أن زميله الصحفي وثيق الصلة بجهات الأمن ، وقريب جداً من لاظوغلي ، وله قرابة ثلاثين عاماً ، يتهم الحركة الإسلامية بالإرهاب والتطرف ، ولا يشك أحد في ولائه للنظام والكنيسة ، ويعلم جيداً – وقد أخبره – أن ما يقال داخل الكنائس هو جريمة بكل المقاييس ، وتعصّب مقيت ، وعدوان شرير على ما يُسمى " المواطنة " و " الأخوة " ، ولكن المذيع الجاهل ينظر إلى مصالحه الخاصة ، وملايينه التي تتزايد ليحصد مع أقاربه منافع السموات المفتوحة وشركات السينما والبرامج والتشفير والقنوات والصحف وغيرها .
هل هي مجرد مصادفة أن تقوم زوجة المذيع الجاهل المأجور بمحاربة الحجاب وما تسميه الشادور في مقالاتها التي تنشرها بجريدة أمريكية الهوى ؟ إن هذه الزوجة مذيعة أيضاً في تلفزيون الريادة ، وتكره الإسلام كراهية شديدة ، وتعبّر عن هذه الكراهية حين تستضيف شخصية ذات خلفية إسلامية فتنهرها وتقاطعها وتسفهها .. هل هي تعمل إرضاءً للتمرد الطائفي أم لجهات أخرى ؟ المفارقة أن أباها – يرحمه الله – كان أستاذاً في علوم الإسلام واللغة العربية ، فهل كان يعلم أن ابنته ستعمل ذات يوم في إطار الحملات الصليبية الجاهلة المأجورة ضد الإسلام والمسلمين لحساب التمرد الطائفي الخائن ؟
لقد جني المتمردون على القاعدة العريضة من النصارى ، ويقودون البلاد إلى مهاوى الهلاك ، ويظنون أنهم يستطيعون الإفلات بجرائمهم الخيانية البشعة ، ولكن الشعوب لها حساباتها ولها منطقها . ونسأل الله اللطف والنجاة !

***

المجمع الانتخابي .. وأحزاب بير السلم !

المجمع الانتخابي ، هو المركز الذى يلتقي فيه الأعضاء المهمون فى الحزب الوطنى الديمقراطى الحاكم أبداً ، ويُقررون من هو الأحق بالترشيح فى الانتخابات النيابية سواء لمجلس الشعب أو مجلس الشورى ، ويُعلنون اسمه نظير مواصفات خاصة ترتبط فى الغالب بقدرته على تأييد النظام ، والتبرع له بمبالغ طائلة يستردها مضاعفة فيما بعدبصورة ما، والانتماء إلى بعض العائلات أو العصبيات ، وفى الوقت ذاته يُطرح " سراً " اسم مرشح آخر أو اثنين بديلاً له يتم ترشيحه أو ترشيحهما مستقلين ، على أساس ضمان فوز الحزب بالمقعد فى كل الأحوال . وقد يُطلب من عدة مرشحين دخول اللعبة الانتخابية على أساس ضمان فوز الحزب بالمقعد فى كل الأحوال . وقد يطلب من عدة مرشحين دخول اللعبة الانتخابية ، بغرض تفتيت الأصوات ، وتفويت الفرصة على المرشح المعارض الحقيقى سواء كان من الإخوان أو بعض الأحزاب التاريخية .

وفى الوقت نفسه ، فإن أحزاب المعارضة الشكلية أو ما يطلق عليه أحزاب " بير السلم " وفقاً للتسمية الشعبية ، تدخل اللعبة " ديكوراً " يُضفى على النظام البوليسى الفاشى مظهراً ديمقراطياً زائفاً ، حيث يحصل مرشحو هذه الأحزاب على مساعدات أو معونات بطريقة ما ، ويدخلون الحلبة ، وهم يعلمون جيداً أنهم لن يحصلوا إلا على أصوات أسرهم وأصدقائهم ، وربما يصوتون هم للحزب الحاكم ، كما فعل أحدهم فى انتخابات الرئاسة (٢٠٠٥م) ، حيث لم يخجل من الإعلان أنه يرشح نفسه ضد رئيس الجمهورية ، ولكنه سيعطيه صوته ! ولكنه حصل – مثل زملائه من رؤساء الأحزاب الورقية – على نصف مليون جنيه ، قررتها السلطة لمرشحى الرئاسة ليُموّلوا حملاتهم الانتخابية الشكلية .

بالطبع فإن أحداً من المواطنين ، حتى من يعملون بالسياسة ، لا يعرف عدد هذه الأحزاب بالضبط ، ولا أسماءها ، ولا أسماء رؤسائها ، ولا الصحف التى تصدرها ! فهى أحزاب أُنشئت للتأييد والهتاف للسلطة البوليسية الفاشية ، وبعضها يبشر بتأييد الوريث ، وبعضها مهمته الاستراتيجية سبّ الإخوان وشتمهم والعيش على هجائهم بمناسبة ودون مناسبة .. وقد يتطاول بعضهم ليُسيء إلى الإسلام نفسه ، وسب الصحابة ، والتشكيك فى الشريعة الإسلامية .

وهناك شيوعى متأمرك ، من سلالة " هنرى كورييل " ، وصار من أصحاب " البيزنس " الكبار ، لا تجد فى قاموسه إلا تكفير المسلمين ، والزراية بالإسلام ، ولا يرى فى تاريخ

المسلمين إلا كل ما هو مخجل ومشين ،ولا يكف عن استخدام لفظ " التأسلم " أو " المتأسلمين " ، والتأسلم يعنى ادّعاء الإسلام ، والمتأسلمين أى أدعياء الإسلام .. أى الكفرة الذين يزعمون أنهم مسلمون .. وبعد ذلك لا يجد حرجاً أن يتهم علماء الإسلام بأنهم يُكفّرون المسلمين الصالحين الأتقياء من أمثاله ، ولو كان يؤمن بما يقوله ماركس ولينين وستالين الذين حوّلوا المساجدفي الاتحاد السوفياتي الذي كان ؛ إلى اصطبلات للخيول وكباريهات ومتاحف وخمارات !

وقالوا إن الدين أفيون الشعوب . وأن المتدينيين رجعيون متخلفون يجب القضاء عليهم واستئصالهم .

المهم أن ديمقراطية المجمع الانتخابى ، لا تعنى بحال أن مصر المعاصرة ديمقراطية ، ولو من خلال حزبها الحاكم والمتحكم إلى الأبد . فالديمقراطية تعنى منهجاً لتبادل السلطة وتغيير الأشخاص وإقرار ما يريده الشعب من خلال انتخابات نزيهة شفّافة ، يعترف بها الناس جميعاً ويقبل نتائجها المهزوم قبل المنتصر .

هذه الديمقراطية بهذا المفهوم لا أساس لها فى مصر المعاصرة ، مع أن بعض رجال السلطة ، لا يملون من القول إن مصر تعيش أزهى عصور الديمقراطية .. وكيف تكون هناك ديمقراطية أصلاً وأنت تفصّل الدستور على جسم النظام البوليسى الفاشى ، بحيث لا يأتى إلى السلطة أو النيابة عن الشعب أو القضاء أو التعليم أو الجامعة إلا من يرضى عنه هذا النظام ؟

لقد عطّلوا المرشحين المتقدمين للشورى مؤخراً من غير رجال النظام ، لدرجة أن أحد المرشحين من الإخوان تعرّض لموقف غريب – وهو إن صحّ – يُدلّل على خسّة فى الخصومة غير مسبوقة ، ولدد بشع ، حيث وضع ضابط الشرطة المعنى بقبول أوراق الترشيح مخدرا في الشاي الذي قدمه ترحيباً بالمرشح الذى ظل فاقداً لوعيه لمدة يومين ، انتهت خلالهما المدة المسموح فيها بالتقديم للترشيح !

وقد رأى الناس وشاهدوا ما جرى فى الانتخابات التشريعية (مجلس الشعب) عام ٢٠٠٥م ، حيث ضُرب القضاة ، ومُنع الناخبون من الوصول إلى لجان التصويت ، وافتعلت معارك ضد مؤيدى المعارضة استخدم فيها الرصاص والسنج والعصى الغليظة مما أدى إلى سقوط نحو خمسة عشر شهيداً ، فضلاً عن مئات المصابين .. ثم تم تزوير الانتخابات بالقوة وعلنا ، ولم يعبأ أحد بشهادة عشرات القضاة الذين كانوا يُشرفون على الصناديق ، ومن أجل ذلك ، غيّروا الدستور كى لا تتكرر شهادة القضاة التى تكشف التزوير والتلاعب والبلطجة ومخالفة القانون ؟

هل يحدث هذا فى فرنسا الذين يضربون بها المثل دائماً ؟

هل يحدث هذا فى بريطانيا التى يقيسون عليها ديمقراطيتنا الزاهية ؟

هل يحدث هذا فى موريتانيا – الإسلامية وعضو الجامعة العربية ، التى أجرت انتخابات يُضرب بها المثل فى العالم كله وليس فى العالم العربى ؟

فى فرنسا تقدم ما يقرب من عشرين مرشحاً للرئاسة ، وجرت الانتخابات على دورتين ، واعترف الخاسر بخسارته وهنأ الفائز .. وكسب الشعب الفرنسى احترام العالم ، حتى لو اختلف مع سياسة فرنسا الاستعمارية ، واستنكر العرب مؤامراتها ضد شعوبهم ، وخاصة لبنان وفلسطين ، وكره الناس تعصبها ضد الإسلام والمسلمين .

توفى بريطانيا ، أنهى مجرم الحرب " تونى بلير " عشرة أعوام من حكمه ، انتخبه فيها الشعب مرتين ، فى انتخابات نظيفة ، وعندما أخفقت سياسته فى العراق وأفغانستان ، وعلى المستوى الداخلى ، فقد أعلن التنحّى ، مفسحاً المجال لمن يأتى بعده ، ويُصحح ، ويحقق لبريطانيا أفضل مما حققه .

ولكن ديمقراطيتنا – حماها الله – تقوم على العنصرية ، فلا تسمح بممارسة السياسة إلا لأبناء الطبقة الجديدة المقدسة فى الحزب الحاكم أبدا ، أو أحزاب بير السلم ، من المستفيدين من الوضع الاستثنائى البائس الذى تعيشه مصر على مدى نصف قرن أو يزيد .. وهذه الديمقراطية لم تجد غضاضة فى تحويل الدستور إلى مجموعة من المواد التى تُكرّس الأحكام العرفية وتُحرّم الإسلام على المسلمين ، وتنمى الطبقة الجديدة بالأموال الحرام ، والسلوك الحرام ، والفكر الحرام !

لقد قلت من قبل ، وفى مناسبات متعددة ، وفّروا على أنفسكم وعلينا متاعب التعلّق بالأمل الكاذب ، وقولوا للناس لن نسمح لأحد بمشاركتنا أو منافستنا ، فعصانا غليظة ، ونبّوتنا أغلظ ، وعلى كل منكم أن يلزم بيته ، ونحن سنعيّن من نريد للشورى والشعب والمحليات والخارجيات والنقابات والمؤسسات والمجالس العليا والسفلى .. ومن لا تعجبه الحال ، فليبحث لنفسه عن دولة أخرى ولو كانت فى واق الواق .

فهل تقولون ؟

***

اللهو الخفي!

أعتذر إلى القراء الكرام لاستخدام هذا العنوان ؛ فهو مما يدور في الواقع الشعبي تعبيرا عن المتاعب والمصاعب التي تهبط على رءوس الناس ، دون أن يعرفوا لها مصدرا أو سببا ..وإن كان بعضهم يعرف مغزاها ومنتهاها!

و" اللهو الخفي"؛ هو أقرب التعبيرات إلى الدقة فيما تواجهه الأمة عامة ، ومصر خاصة في هذه الأيام ، حيث تجد قضايا تُطرح على نطاق واسع ، ولا تدري السر في ذلك .. أو الهدف من تفجيرها في هذا الوقت بالذات ؟

ومن هذا اللهو الخفي ما عرف بقضية " إرضاع الكبار " . من الذي كان وراءها بالضبط؟ ولماذا حظيت بهذا الزخم الإعلامي الكبير في التلفزة والإذاعة والصحافة والمستوى الشعبي العام ؟ ثم ذلك الإلحاح على ما يسمى بمسألة الفتاوى الفضائية وموضوعاتها الهامشية التي لاتعني جموع الناس ، ولا مصائرهم ، ولا مستقبلهم ؟

ولنفترض أن شخصا دفعه الهوى إلى تناول مسألة من هذه المسائل الهامشية التي تغطي على قضايا كبرى تهم جموع الناس وترتبط بقضاياهم اليومية في الطعام والشراب والأسعار الملتهبة وتوفير الضروريات الأساسية للأبناء والحصول على العلاج ،ومقاومة الأزمات التي يصنعها بالقانون كبار اللصوص والمحتكرين والفاسدين والمفسدين.. فماذا يعني إرضاع الكبير ليحل له الاختلاء بزميلته في العمل ، هل قضية هذه الزميلة أهم من من قضايا الوجود ذاته ؟

ومن هذا اللهو الخفى ، قضية مثل عروبة مصر أو فرعونيتها . ما معنى إثارتها في هذا الوقت الذي لا توجد فيه عروبة ولا فرعونية من أساسه ؟

إن الموجود فعلا أمة من العبيد ؛ مستباحة من الغزاة النازيين اليهود والمستعمرين الصليبيين المتوحشين ، القادمين من وراء البحار ، يعيثون في أرضها فسادا وإفسادا ، وقتلا وتدميرا ، ونهبا وسرقة ؟ ثم إن هذه الأمة المستعبدة لا تملك من أمرها شيئا ، فقد وكلت مصائرها إلى طغاة مستبدين في معظمهم ؛ يستخدمون العنف والغدر والخسة والمكر للإجهاز على ما تبقى من من قيمها وكرامتها ورموزها ..

لنفترض أن كاتب مسلسلات حانقا على بعض العرب ، لأنهم لم يحققوا له ما يريد في مجال "البيزنس " المسلسلاتي ، فهل يستحق ذلك أن ننفى عن مصر عروبتها وإسلامها ،

ونرفع المذكور إلى مرتبة سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم –الذي يفتري عليه المفترون بأنه غيّر من قراره ، وعدّل من رأيه وحوّل القبلة من القدس إلى مكة المكرمة ، كما افترى المفترون على عمر بن الخطاب ، وادّعوا أنه أوقف حد السرقة في في عام الرمادة، ومنع نصيب المؤلفة قلوبهم من الزكاة ؟ أين وجه المقارنة بين كاتب المسلسلات صاحب "البيزنس " ، ونبي الإسلام – صلى الله عليه وسلم – الذي لاينطق عن الهوى ويمتثل في أقواله وأفعاله لوحي ربه ؟

ثم هل يملك عمر أو غيره أن يوقف حدا من حدود الله ؟ أم نفهم المسألة على وجهها الصحيح ؟ حيث لم تتوفر الأسباب لإقامة الحد على اللصوص ، ولم يعد هناك مؤلفة قلوبهم يستحقون الزكاة ؟

ومن هذا اللهو الخفى ما يثيره كتّاب غشاء البكارة والختان والعجز االجنسي من آن لآخر ، حول الإسلام وقيمه ، والتشكيك فيه بمناسبة وغير مناسبة ، أحدهم ادعى أن طفله تعلم في حصة الدين بالمدرسة أن المغضوب عليهم في سورة الفاتحة هم اليهود والنصارى ، وأنه رجع إلى بعض التفاسير فوجد كلام الطفل الذي سمعه من مدرّسه صحيحا . وأقام صاحبنا مناحة من أجل تنقية كتب التفسير والتراث من هذه الآراء التي تدعو إلى الفتنة والتطرف والإرهاب .!

وبالطبع فإن صاحبنا لا يكلّ ولا يملّ من الكلام عما يسميه حرية الرأ ي، وحق التعبير ، وطلاقة الإبداع ، وكم تبنى الدفاع عن الأعمال المدنّسة التي تسبّ الله والرسول – صلى الله عليه وسلم – والإسلام والمسلمين ، وقد نشرت الصحيفة التي يكتب بها صاحبنا في العدد نفسه، نصف صفحة عن كاهن بإحدي الكنائس المصرية يلعن الإسلام والمسلمين ، وأظنه لن يجد في ذلك غضاضة لأنها حرية تختلف عما يفعله المسلمون الظلاميون في كتبهم ومؤلفاتهم !

وأسأله أولا : هل هناك حصة دين أصلا في مدارس مصر الإسلامية ؟ أم إنها انتهت تماما أيام وزير التنظيم الطليعى الذي جعل الإسلام مرادفا للإرهاب والقتل ، وحول مدرسى الدين الإسلامي إلى أعمال إدارية ، وجعل حصة الدين لا تُدرس ولا تضاف إلى المجموع ، وآخر ما تفكر فيه المدرسة ؛ لأنها حصة مستباحة لمدرسى الرياضيات والاجتماعيات والألعاب والرسم ..ومجموعات الدروس الخصوصية !

أما المغضوب عليهم ، فهم بالتأكيد يا كاتب الاستنارة ليسوا اليهود الغزاة النازيين الذين يقتلون الفلسطينيين والعرب والأسرى (برفق وحنان) ، ويدوسون بالدبابات على الأجساد الحية والميتة ، ويعذبون الآن أحد عشر ألفا من الأسري في سجونهم بأحدث ما وصلت إليه التكنولوجيا (ولكن في إنسانية زائدة عن الحد !).

وهم بالتأكيد أيضا ليسوا الصليبيين الاستعماريين الذين دمروا – وما زالوا – أفغانستان والعراق ولبنان ، ومزقوا السودان والصومال ، وزرعوا الفتنة في مصر والجزائر وتونس والمغرب واليمن ، وفعلوا كل ذلك بالدبابات بقنابلهم الذكية (الجميلة) وطيرانهم (الوديع) وصواريخهم (الرشيقة) ودولاراتهم(الخضراء)!

ومن قضايا اللهو الخفى التي تصل من خارج الحدود ما قام به وزير الثقافة التونسي ، حين منع ثمانية آلاف عنوان (إسلامي) من العرض في معرض الكتاب بتونس الخضراء ، وأعادها من حيث أتت !! ، لأنها – كما قال معاليه – كتب ظلامية !(أين أنتم يا بتوع حرية التعبير .. شكر الله سعيكم) ،خادم سيده يقول إنه ليس ضد الكتاب الدينى (كذا !) ، ولكنه ضد الكتب الظلامية ؟ ثمانية آلاف عنوان كلها ظلامية " يامفتري"؟ لا شك أن "خادم سيده" تعلم من سادة سيده أن الإسلام هو الإظلام كما سبق إلى ذلك مثقفو الحظيرة في بلادنا ، وقد اقتدي برفيقه الشيوعى المتأمرك في الرباط (ويسمى الأشعرى !)في منع الكتب الإسلامية من العرض ، وسمح للكتب الصهونية في الوقت نفسه بالوجود !ولكن خادم سيده التونسي ، أضاف إلى ذلك منع المحجبات التونسيات وغيرهن من دخول المعرض أو شراء الكتب .

قضايا اللهو الخفى لا تنتهي ، ويفرضها علينا مجهولون أو معلومون مثل المجهولين ، كي ننسى أمورا في غاية (البساطة !) ؛ مثل الاستمرار في تدمير أفغانستان والعراق ، وقتل شعبيهما بوساطة المرتزقة والقصف الجوي الذي لا يستثني مدنيا أو مقاوما ، مع هدم البيوت والمستشفيات والمساجد ، وذبح العلماء والمخطوفين بعد تعذيبهم بطريقة وحشية يعف عنها الحيوان .. مع سرقة البترول والتراث والثروات ، وزرع الفتنة الطائفية والعرقية ، وإنشاء الكيانات والكانتونات الانعزالية لإقامة دويلات جديدة في الوقت القريب المناسب .

ومثل تزويد آية الله محمود عباس ميرزا – البهائي الأعظم – رئيس مايسمي السلطة الفلسطينية في جمهورية دحلانستان بستين مليون دولار أميركي ، لاغتيال (حماس) وتدميرها ، وإيقاف صواريخ القسام ، كي لا تزعج (غير المغضوب عليهم حتى لا يغضب كاتب غشاء البكارة) ، وإنهاء قضية اللاجئين والقدس والمياه، اكتفاء بجمهورية دحلانستان !

ومثل – وهو الأهم – الانتهاء من قانون الأحكام العرفية الذي نصت عليه التعديلات الدستورية الأخيرة ؛ وهو القانون الذي سيجعل أمين شرطة يقبض على أمين الجامعة العربية دون إذن من النيابة ؛ بتهمة الإرهاب ،أو أية تهمة تعجب سيادته!!

وما زال الإعلام مشغولا بقضايا اللهو الخفى ، وطشة الملوخية ، ولحم البعرور ، وشرب البول ، وتجليات شرم الشيخ الشقيقة!

***

ذهبت وأنا عمر .. وجئت وأنا عمر !

فـى أول أيـام العـام الـهجـرى الـجديـد ١٤٢٨هجريـة ، قـدم التلفزيـون المصـرى حسـنـة مـن حسناته القليلة ، بإذاعة الحلقات الأخيرة من مسلسل عمر بن عبدالعزيز ، رضوان الله عليه . وهذا المسلسل من الأعمال العظيمة التى كتبها الراحل الموهوب " عبدالسلام أمين " وقام

بتقديمه مجموعة من الممثلين الممتازين فى مقدمتهم رشوان توفيق ونور الشريف وعبدالرحمن أبوزهرة ومديحة حمدى ..

لا يمل المشاهد من الجلوس أمام الشاشة لمتابعة وقائع أحداث المسلسل ، مهما تكررت إذاعتها أو بثّها ، ففيها ما يشدّ ويجذب ويُمتع ، إنها حياة الخليفة الراشد الخامس ، الذى حكم ثمانية وعشرين شهراً ، حوّل الدولة من خلالها إلى مخزن للخير ومصدر للعدل ومحيط للأمن ومنبع للإيمان يفيض على الدنيا كلها ، ويقدم صورة رائعة ، بل أكثر من رائعة للإسلام حين يُشيع الطمأنينة فى النفوس ، ويُبعد شبح الفقر عن الملايين فى المشارق والمغارب ، ويُخضع لسطوة الحق طغاةً و جبابرةً ولصوصاً !

تأتى من مصر مربية " عمر بن عبدالعزيز " ، وتصل إلى دمشق ، وتسأل عن دار الخليفة لتشكو إليه فقرها وعوزها ، فإذا بهم يرشدونها إلى بيت متواضع فى ناحية من نواحى دمشق ، فتظن أن الذين أرشدوها يستهزئون بها ، فتقول لهم : إن دارها المتواضعة المتهالكة فى أحد أحياء القاهرة أفضل من هذه الدار ، ويدخل عمر وهى تحتج على من أدخلوها الدار المتواضعة ، ويقول : لقد صدقوا . فهى دار الخليفة ، وأنا الخليفة .. وتظن المرأة أنه يتابع حملة الاستهزاء .. فتقول له : أتسخر منى ؟ فيقول لها : لا ..ألا تعرفيننى يا خالة؟ وتسأله : من أنت ؟ فيقول لها عمر : أنا عمر بن عبدالعزيز الخليفة ، فيزداد اندهاش المرأة ، لأن الذى تراه أمامها شخص بسيط ، يلبس ثياباً خشنة ، وقد عهدت عمر يلبس الحرير ، ويُغيّر كل يوم ثوباً ، ولكنها تتحسس يديه التى عرفتها مذ كان صغيراً ، وتضع يدها على جبهته فترى أثر الجرح الذى يُميزه ، والذى أشار إليه جدّه الأعلى " عمر بن الخطاب " فى نبوءة صدقت : " من هذا الأشجّ (المجروح) يأتى من نسلى ، ويرثنى من بعدى ؟" .. عرفت المرأة الأشجّ ، وتأكدت أنه هو عمر الذى ربته فى دار الولاية بمصر ..

وتزداد دهشة المربية حين يأتون لها فى دار الخلافة بطعام بسيط متواضع .. وتكثر دهشتها حين ترى زوج الخليفة بسيطة تشبه فقراء المسلمين فى ملبسها وحياتها !

ويأمر عمر للمربية بعطاء من بيت المال يكفيها فى رحلتها ، ويؤمن لها بناء بيت يليق بها بدلاً من بيتها المتداعى فى القاهرة ، وليكون أفضل من بيته وأقوى وأجمل !

ويلتقى عمر بن عبدالعزيز بشيخه ومستشاره الأمين " رجاء بن حيوة " ، وتتلاشى الشمعة التى تُضىء المكان ، فيذهب عمر بنفسه ليُضىء شمعة أخرى ، ويرفض أن يقوم رجاء بهذا الأمر .. وحين يتعجب رجاء دهشاً من هذا الأمر فإن عمر يقول ببساطة شديدة : " ذهبت وأنا عمر .. وجئت وأنا عمر " !

وكان ابن المهلب صهر الحجاج يتولى بلاد ماوراء العراق (خراسان)، وكان طاغية شرساً ، متجبراً ، يسخّر منصبه للكسب والتربح ، ويُطارد كل من يعترضه ، ويُلقى به فى السجن

ويعذبـه ، ويُبقيـه إلـى أجل غير مسمى . وكثرت الشكاوى ضده ، فاستدعاه عمر إلـى مقر الخلافة ، فجاء بهيلـه وهيلمانـه وأبهتـه وحراسـه ، وهداياه وأموالـه ، وظن أن ذلك سيجعل لـه مكانة عند خليفة المسلمين تفوق بقية الخلائق ، ولكنـه فوجئ بمالم يكن يتوقع ، فقد جرده عمر من كل هذا ، وأبقاه وحيداً ، وحاسبه بالسؤال الشهير : من أين لك هذا ؟

ولكنـه استعظم أن يًسأل أو يًحاسب ؛ ويرد بغطرسة : لقد تاجرت وزرعت واستثمرت ، وملأت الأسواق بما يحتاجه الناس إن لم يكن مجانا فبثمن قليل ! ويردّ عليه الراشد العمرى:

– ألم يصادر الحجاج أموالك ؟ ثم أنى لك بمعرفة الأسعار رخيصها وغاليها ؟ ويأمر عمر بإيداعه السجن ، وضم أمواله وهداياه إلى بيت مال المسلمين ، وإطلاق سراح سجنائه فى ولايته !

وعندما يعرض " رجاء بن حيوة " بريد الولاة (المحافظين بلغتنا هذه الأيام) ، ويقرأ عليه رسائلهم ، فإنه يقرأ عليه رسالة من والى اليمن أو عامل اليمن يطلب فيه " ميزانية " ليشترى ورقاً من مصر ليكتب عليه الرسائل الرسمية .

وينظر عمر فى الرسالة فيراها على ورقة كبيرة ، فيطلب من رجاء أن يكتب إليه بأن يختصر فى رسائله ، ويكتبها على ورق صغير ، توفيراً لأموال الدولة .

ويكتب إليه وال آخر يطلب زيادة فى الاعتمادات كى يبنى سوراً يحمى المدينة ويُحصنها ، ويُعبّد طرقها ، فيردّ عليه : حصّن مدينتك بالعدل ، وعبّد طرقها بالقضاء على الظلم والفساد !

ويكتب إليه ثالث أن كثيراً من أهل الذمّة (غير المسلمين) قد دخلوا فى الإسلام ، وقلّت الموارد بسبب رفع الجزية عنهم ، فيرد عليه : بأنه يتمنى ، لو أن كل أهل الذمة دخلوا الإسلام ، واشتغل هو ومن معه عمالاً وراء المحاريث لخدمة الإسلام والمسلمين !

لم يسلم الراشد العمرى من التآمر ، ولم يسكت الفاسدون المفسدون فى الداخل والخارج عن محاولة إزاحته وإلحاق الأذى به ، فقتلوا ابنه " عبدالملك " بالسم ، وهو فى ريعان شبابه وصباه ، وقتلوه هو الآخر بالطريقة ذاتها ، ولكنه ظل حتى قُبض إلى بارئه ، يمثل النموذج الأعظم والأروع للحاكم العادل الورع التقى ، ولا نزكيه على الله ، والله حسيبه ، وقُبيل وفاته أرسل إليه – امبراطور الروم – عدوّ المسلمين اللدود ، كل الأطباء الذين يمكنهم معالجته تكريماً له واعترافاً بكرم أخلاقه وحُسن معاملته ، ووفائه بوعوده ، واحترامه لمواثيقه ، ولكن الأطباء لم يصلوا إلا بعد رحيله إلى الرفيق الأعلى !

وكان أجمل ما اشتمل عليه المسلسل هو ذلك النشيد المعبّر عن عمر ؛ والذى صاغه الموهوب الراحل عبدالسلام أمين فى المقدمة والختام :

هاهو العدل تجسّد

هاهو الحق تجدّد

ها هو الحلم الذى ظل صداه يتردّد

فى نفوس الفقراءِ

وقلوب الضعفاءِ

وقيود السجناءِ

....

....

الراشد العمرىُّ على الصراط قوىُّ

وبالفقير رحيمٌ وباليتيم حفىٌّ....

تفى ثمانية وعشرين شهراً ، اعتدل ميزان الدولة ، عادت سيرتها الأولى الراشدة ، تراجع الظلم والنهب . توافقت الأمة ، أمنت الأغنام على نفسها أمام الذئاب ، أو عاشت الذئاب مع الأغنام فى سلام !

لماذا نحتاج إلى سيرة عمر الجد وعمر الحفيد ؟

لأننا نحتاج إلى العدل والأمن والكرامة .. والدولة المدنية الإسلامية التى تساوى بين مواطنيها، ولا تجعل الأقلية الفاسدة أو الأقلية المستقوية بأعداء البلاد فوق الأكثرية المظلومة المقهورة !

وليت مثقفى الحظيرة يكفون عن هجاء الإسلام ، وتملّق خصومه ..وليتهم يتقون الله فيما يرددونه من أكاذيب سادتهم ومستخدميهم عما يسمى مخاطر الدولة الدينية ، فالإسلام لم يعرف الدولة الدينية الكهنوتية على امتداد تاريخه الطويل ، ولكنه ابتلى بالدولة البوليسية الفاشية التى لا تعرف الحق ولا العدل ولا كرامة الإنسان المسلم ...

وليتهم يقرأون سيرة العمرين ، ويأمرون سادتهم وكبراءهم أن يُقلّدوهما حتى يفيض الخير والأمن والإيمان على القلوب والنفوس والمجتمع ، وحتى يقول الحاكم العربى :

ذهبت وأنا عمر .. وجئت وأنا عمر !

***

فضيلة الجنرال.. وفقه الأولويات!

من المؤكد أن فضيلةالجنرال زقزوق يملك قدرة جيدة على الكلام والجدل، ومحاولة الإقناع بما يقول . وقد خرج علينا مؤخرا بمقال يتحدث فيه عن ترتيب الأولويات ، ويحمل على الذين يحجون ويعتمرون مرات عديدة ، والذين يبنون المساجد والمعاهد الدينية تقربا إلى الله بوصف ذلك من الهامشيات التي تسبق الضرورات مثل التكافل الاجتماعي ، وتوفير المواردالمالية من العملات الصعبة للدولة. فمصر بها مائة ألف مسجد وثمانية آلاف معهد

ديني ، وليست في حاجة إلى مزيد ، ولكن المطلوب هو حماية المحرومين من الوقوع فريسة في يد من لا يرحم بتجنيدهم لأغراض دنيئة لنشر الفوضى والتطرف والإرهاب ، وتدمير المجتمع بالمخدرات ، والأعمال المنافية للآداب!

ولاشك أن معاليه يحتاج في هذا السياق أن يطبق مايقول على نفسه أولا ، قبل أن يقوله للناس ليقتدوا به وينفذوا رؤيته على أرض الواقع .. أما وهو لايطبق شيئا مما يقول على نفسه ؛ فلن يجد صدى لكلامه ، ولن تسمع أذن ممايقوله شيئا .

ومنذ عشرات السنين ؛تكلم الدعاة والفقهاء عن فقه الأولويات الذي يسبق الثانويات ، وفقه الضرورات الذي يأتي قبل فقه الهامشيات ، ولكن الواقع القائم لم يستجب لهذا الكلام ،لأن المسألة بها ظروف وملابسات على قدر كبير من العداء للإسلام والمسلمين .

وأول أعداء الإسلام هو الاستبداد الذي يجعل الإسلام تهمة وجريمة وإرهابا وخروجا على الإنسانية ، وما أكثرالذين سجنوا واعتقلوا وعذّبوا بسبب تمسكهم بالإسلام دينا وعقيدة وشريعة ، وما أكثر الذين فقدوا أوراحهم وأعمارهم وأموالهم بسبب انتمائهم إلى الإسلام ؛ وما أكثرالذين حوربوا ، وعتّم عليهم ، وتم إقصاؤهم لكونهم لا يقبلون بغير الإسلام بديلا ..

وللتمثيل لا الحصر ، أقول لفضيلة الجنرال زقزوق الذي علق عليه الناس يوما بعض الأمل في خدمة الأسلام والمسلمين ففجعهم بوقوفه في صف الاستبداد وأعوانه ؛ إن مصر المسلمة ،شهدت على مدي نصف قرن أو يزيد ما يلى :

- إقصاء للإسلام وقيمه بتدمير الأزهر ، وتلويث الإعلام ، وتغريب التعليم .
- صاركل من يؤمن بالإسلام منهجا للحياة والمستقبل يوضع في خانة (**مطلوب!**).
- صار الخطاب الديني الأميركي هو البديل العملى للإسلام ،ومن يخرج عليه فهو إرهابي يجب سحقه وتدميره .

ومن اللافت أن يدعو معالى الجنرال إلى معالجة الخلل في ترتيبالأولويات ، وهو أول من يمارس هذا الخلل ، ويتعامل بالمقلوب في ترتيب الهامشيات والضرورات ، وسأضرب مثالا على ذلك تمثل في في إصراره الغريب والمريب على توحيد الأذان في مدينة القاهرة ، وإنفاق أموال المسلمين (الأوقاف) على أمر لا يمثل ضرورة ملحة ، مع أن هذه الأموال يمكن إنفاقها على " المحرومين " ورعاية الفقراء ،أو الدفاع عن الإسلام في مواجهة الهجمة الصليبية العاتية التي لم تبق للإسلام فضيلة واحدة ، وتدعو الناس صراحة إلى التخلى عن دينهم وعقيدتهم باسم التنوير – الذي يعني في مفهومه الغربي الإلحاد وعدم الإيمان بما وراء الطبيعة – أو التقدمية التي تعني الشيوعية ، أو التحرر الذي يعني الإباحية بمفهوم الغرب طبعا !

هل توحيد الأذان يمثل أولوية لها أهمية على رعاية المحرومين والفقراء والدفاع عن الإسلام ؟

لنفترض أن القاهرة كلها لا يوجد بها غير مؤذن واحد في مسجد الكخيا .. ألا يكفي شرعا لإعلام من حول المسجد في القاهرة كلها بموعد الصلاة ودخولها ؟ هل تعدم القاهرة ذات الملايين العشرين في النهار ؛ أن تجد شخصا متطوعا في كل مسجد يقيم الأذان حسبة لله تعالى ، بدلا من "الريسيفيرات " وأجهزة الاتصال مع الإذاعات والتلفزيونات ؟

هل تجسدت مشكلات الإسلام والمسلمين في قضية واحدةهي توحيد الأذان ؟ أو إن المسألة لها وجه آخر؛ يخدم الاستبداد ، ويؤصل للخطاب الديني الأميركي الذي تفرضه أميركا بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر الشهيرة ؟ثم أليس من الواجب على مولانا فضيلة الجنرال المنزعج من مائة ألف مسجد وثمانية آلاف معهد ديني ،أن يأخذ بمنهج الخطاب الديني الأميركي الذي يتبناه فضيلته، ويسيرعلى خطى "أصحاب البلد" الذين يرفعون شعار " كنيسة لكل مواطن" ، فيكون هناك شعار " مسجد لكل ألف مواطن " على الأقل؟

إن أصحاب الكنائس يا فضيلة الجنرال يفتحونها ليل نهار، أربعا وعشرين ساعة ،ويمارسون فيها الأنشطة الدينية والثقافية والفكرية ، ولايستطيع أحد أن يعترض على أي نشاط منها حتى لو كان دعوة إلى نفي اللغة العربية ،أو طردالمسلمين الغزاة من مصر ، أوتعميق الإيمان بأن أصحاب الكنائس هم أصحاب البلد الأصليون الذين يجب أن يتحرروا من المسلمين الغزاة !

ولعلك ياصاحب المعالى تطالع مثلا جريدة الكنيسة " وطني "في عددهاالصادر بتاريخ الأحد ٢٠٠٧/١/٢١م = ١٣طوبة١٧٢٣ش =٢ محرم ١٤٢٨هـ- لترى على صفحتهاالأخيرة برنامجا مطولا باسم " أسبوع الصلاة من أجل وحدة المسيحيين " يبدأ من ٢٠٠٧/١/٢٢ حتى ٢٠٠٧/١/٣١، وتتوزع فعالياته على جميع الكنائس التي تصلى من أجل الوحدة ، وتتنوع موضوعاته ومحاضراته التي تبدأ في وقت واحد هو تمام السابعة مساء ..

هل يستطيع مسجد من المساجد المائة ألف أن يعقد ندوة وعظية دون موافقة (حبايبناالحلوين) ،ولوكان صاحبها في مثل علمك ومركزك وجاهك؟

الضرورة الأهم يافضيلة الجنرال ، هي تحرير الإسلام من قبضة الاستبداد الذي ينفذ الخطاب الديني الأميركي بصرامة غير معهودة ، ويصر على نفى الخطاب الإسلامي الحقيقي ومطاردته ووصمه بكل النعوت البشعة لتنفير الناس من الإسلام والمسلمين ،وهو مايجعلهم على غير وعي بالأولويات والثانويات ،بل يدفع الكثيرين إلى تدمير المجتمع بالمخدرات والأعمال المنافية للآداب!

لوأنك ياصاحب المعالى تأملت الأمر جيدا لعرفت أن الخطاب الديني الأميركي يحرم الناس من عمل الخيرات ، والدخول في ميدان التكافل الاجتماعي ،لأنه يعدهم " أصوليين " أي متطرفين ،أي إرهابيين ، أي مجرمين ، أي لا يحق لهم الوجود فضلا عن التعبير عن أنفسهم ،لذا يبحث كثير منهم عن إنفاق ماله في الحج والعمرة حتي لايتهم بتمويل تنظيمات غير مشروعة ،أو تمويل الإرهاب ،وأظنك تعلم يا فضيلة الجنرل ؛ أن أميركا فرضت على دولة إسلامية لها مكانتها أن تحل جمعية خيرية كبيرة كانت تعالج الفقر والجوع في البلاد العربية وإفريقية وآسيا،بعد أن اتهموها كذبا بتمويل الإرهاب!

وكثيرا ما تخرج الأبواق الموالية للاستبداد والخطاب الديني الأميركي باتهام من يقيمون المستوصفات المجانية للفقراء أو تقديم المساعدات للمحتاجين والمعدمين ،بأنهم إرهابيون تأتيهم الأموال من الخارج (!) لتجنيد هؤلاء من أجل الوصول إلى الحكم !

ألاقاتل الله الاستبداد وأعوانه!

هناك من الضرورات – يامعالى الجنرال – الكثير ممايتعلق بك وبوزارتك ،وفى مقدمته استرداد الأوقاف المنهوبة من جانب الكبار، وليس البسطاء الذين أقاموابيوتا متواضعة على أرض الأوقاف تحمى لحمهم من البرد والقيظ ،أو راحوا يستغلون مساحات زراعية محدودة يتعيشون عليها..هناك أوقاف ضائعة يجب استردادها ،وهناك أوقاف يجب إعادتها إلى الأزهر ليؤدي رسالته كما ينبغي مثلما أعيدت أوقاف النصارى ،وهناك أموال يجب توفيرها بدلامن الإسراف ، وهناك واجبات على وزارة الأوقاف يجب أن تقوم بها وخاصة في زماننا ، ليس أهمها الدعوة إلى عدم تكرار الحج والعمرة أوعدم بناء المساجد والمعاهد .. هذه الواجبات أنت أعرف الناس بها، ولكنك فيما يبدولاتقدر على أدائها بسبب الاستبداد اللعين ،والخطاب الدينى الأميركي المهين .. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

***

دموع العدالة ...

ودموع الوطن!

ما الذي يجري في هذا الوطن ؟

سؤال يردده معظم أبناء الوطن علي الأقل ،عدا القلة العنصرية الحاكمة ومن يلوذ بها.

أشياء غريبة لا يمكن أن تحدث في بلادنا ولكنها حدثت . المروءة والشهامة والإنسانية والرجولة .. فارقت كثيرين ولكنها ما زالت لدي البعض .. وهو ما يزيد من علامات الاستفهام عن وطن كان رمزا للعطاء والخصوبة والتسامح و الأمل والصبر الجميل علي البلاء؟

من ميدان الجيزة ركبت فتاة في السادسة والعشرين من عمرها متجهة إلى العمرانية ؛ فإذا بالسائق وآخر يحاولان اغتصابها بعد أن انحرفا بالسيارة عن طريق العمرانية إلى طريق المنيب ، فاستغاثت الفتاة بالكمين الموجود على محور المنيب ،فقام ضابط وجندي بدافع الشهامة والمروءة ، وواجب الإنسانية والرجولة بمطاردة السيارة على مدى ثلاثة كيلومترات حتى استطاعا إيقافها ،وإنقاذ الفتاة ،ولكن المغتصبين استخدما السلاح ، وأرديا الضابط شهيدا ، وأصابا الجندي .. ما هذا الذي يجري في وطن كتب عنه الرحالة الأوربيون في مطلع القرن العشرين أنه وطن الأمان في الليل والنهار . من الإسكندرية شمالا حتى وادي حلفا جنوبا !!ما ذا جرى لوطن يفترض فيه أن يحدب الرجال على النساء ، ويحمي الأقوياء الضعفاء ، انطلاقا من تربية إسلامية ، تعلم أن الله يراقب ويجازي في السر والعلن؟

رحم الله الشهيد ،وألهم الوطن وآله الصبر .. ودعوات بالشفاء للجندي الجريح . وما زلت يا مصر بخير حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا !

وتفجعنا الأخبار بطرف من حوادث الخسة والنذالة غير المسبوقة ، ولم تعرفها مصر من قبل ، وخاصة في هذا الوسط الذي يطلقون عليه " ملائكة الرحمة " وقد صار " شياطين جهنم " و"أبالسة الجحيم " ..

عامل الأمن بالمستشفى الجامعي بالإسكندرية ، يلقى بجثة مريض متوفي على الرصيف المجاور للمستشفى (الأهرام ، ٩ – ٢٠٠٧/٣/١٠م)،ويؤكد العامل في أقواله بالتحقيقات أمام النيابة أنه تصرف بناء على أوامر الطبيب الذي طلب إلقاء جثته خارج المستشفى الجامعي (!)وتأمر نيابة العطارين بضبط الطبيب وإحضاره.. ثم ماذا؟

أيا كانت العقوبة ، فإن هناك خللا جسيما وشرخا كبيرا في سلوك الناس وقيم المجتمع (تم حذف التربية الدينية عمليا من مقررات المدارس والجامعات منذ بداية أزهى عصور الديمقراطية !) ، إلى هذا الحد تصل البشاعة بطبيب أو عامل لإلقاء جثة على قارعة الطريق ،فلا يصده مدير أو خفير ، ولا يعبأ بقانون أو ضمير ؟

هل مات الحس الإنساني لدى الشعب المصري أو قطاع منه ؟

إن الضابط الذى ضحى بعمره مع الجندى المصاب من أجل إنقاذ فتاة ضعيفة من أنياب الوحوش البشرية يؤكد أن قطاعاً من الوطن مازال يحمل درجة " إنسان " . أما ما حدث من إلقاء جثة ميت على الرصيف ، فيُؤكد أن قطاعاً آخر يحمل درجة " وحش " ، بل إن " الوحش " حين يشبع يتعفّف عن لمس الجيفة !

وإذا كان الاغتصاب أو إلقاء الجثة يُعبر عن ثقافة متدنية فى بعض الأوساط ، فماذا تقول فى موقف وزير العدل ، الذى يُفترض أنه الرمز الأعلى للعدالة بوصفه رئيس مجلس

القضـاء الأعلـى ، وهـو يحـرم قاضـياً مـن أبنائـه مـن العـلاج مـن صـندوق الرعايـة الصـحية بالوزارة ؟

لقد انهمرت دموع المستشار يحيى راغب الدكرورى ، رئيس نادى قضاة مجلس الدولة ، وهو يتكلم فى مؤتمر صحفى نقلته المصرى اليوم فى ٩ /٢٠٠٧/٣م ، حول مأساة القاضي الشاب محمد جاد المنزلاوى ، الذى يحتاج إلى جراحة دقيقة فى المخ تجرى فى ألمانيا ، وتتكلف ما يقرب من مليون جنيه . لقد امتنع وزير العدل (!) عن تنفيذ حكم الإدارية العليا بأحقية القاضى فى العلاج على نفقة الوزارة . مما اضطر المستشار الدكرورى أن يناشد رئيس الدولة للتدخل من أجل إنقاذ القاضى المنزلاوى ، ودعا إلى عقد جمعية عمومية طارئة يوم ٢٠٠٧/٣/٢٣م لاتخاذ مايراه القضاة مناسباً من إجراءات تصعيدية ضد الوزارة ، ولتنفيذ الحكم النهائى لصالح القاضى المريض .

ثم إن المستشار الدكرورى اعتذر عن قبول تبرع من رجل أعمال بالإسكندرية حفاظاً على هيبة القضاء ومكانته ، ولكنه قال : إن القضاء المصرى الآن يعيش محنة طالت رجال القضاء بصفة عامة ، وقضاة مجلس الدولة خاصة ، مما يتطلب تدخل رئيس الدولة شخصياً .

وأوضح أن إنسانية الدولة وشهامتها ليست مع القاضى الشاب ، ولكنها تظهر مع أشخاص آخرين وفئات أخرى ووظائف أخرى تعلمون جميعاً من هى ؟

ولم يتمالك المستشار الدكرورى نفسه وانخرط فى البكاء حزناً على القاضى المريض ، الذى لم يقف به القدر عند صراعه مع المرض ، وإنما دخل رغماً عنه حرباً أخرى مع وزارة العدل .

وقال المستشار الدكرورى : سنواجه سلسلة جهنمية من الإجراءات التى تفرغ الحكم القضائى الصادر للمنزلاوى من مضمونه ؟

لقد تدخل الرئيس بنفسه ،وأمر بعلاج القاضى الشاب على نفقة الدولة ، ووضع حدا لسلوك غريب يتنافي مع إنسانية الإنسان والبشر ، فهل ننتظر أن يتصرف الرئيس في كل مرة ؟

ثم أتساءل : هل نحن حقاً نعيش فى الوطن الذى كنا نعرفه ، وضحى بفلذات أكباده فى أربعة حروب ؟

هل نحن حقا ننتمى إلى الرحمة والإنسانية والتعاون والعدل الذى تسبقه الرحمة ، أيا كانت القوانين الحاكمة والظروف الملتبسة ؟

قاض يتعرض للموت ، ويحصل على حكم نهائى بعلاجه على نفقة الدولة ، ويقوم وزير العدل بالاستشكال وتعطيل الحكم وتفريغه من مضمونه الإنسانى والخلقى ؟

لنفترض أن معالى الوزير بينه وبين القضاه ما بين الأعداء المتقاتلين ، فنا ذنب القاضى المريض الذى يحتاج إلى إنقاذ ؟

إن دموع المستشار الدكرورى علامة على انهيار عام أصاب المجتمع المسلم الذى يعلى قيمة " الإنسان " – أيا كان – بغض النظر عن طبقته أو لونه أو جنسه أو طائفته أو مذهبه أو موقفه " ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا " (الإسراء : ٧٠) .

إن دموع الدكرورى ، هى دموع العدالة ، بل دموع الوطن ، وهو وطن يبيع أبناءه الشرفاء بثمن بخس ، ليس فى مجال القضاء وحده ، ولكن فى كل المجالات الشريفة ، وفى الوقت ذاته يشترى آخرين ممن يكون الشرف بعيداً عنهم وعن سيرتهم وسلوكهم وأخلاقهم ؟

وما رأيكم دام فضلكم فى وطن يدعم محتكرى الحديد والأسمنت بستين وخمسمائة مليون جنيه فى العام ، ويعطل علاج قاض (يقيم العدل) بأقل من مليون جنيه ؟

لا أريد إجابة . فالإجابة معروفة سلفاً وخلفاً ، ولكننا نذكر القوم ، بأن القانون البدهى الأولى فى الأوطان الحقيقية يكمن فى تلك الجملة البسيطة التى نحفظها ونعلقها فى كل مكان ، وهى : العدل أساس الملك !! وإنا لله وإنا إليه راجعون

***

حزب السلطة والعدالة الاجتماعية

يبدو لي أنه لم يعد هناك من أثر للعدالة الاجتماعية في مصر إلا في حالتين أو مجالين الأول مكتب التنسيق والآخر بطاقة التموين ، وتسعي السلطة إلي محو هذا الأثر من خلال اختراع ما يسمي امتحان القدرات ليكون معبرا للفاشلين إلي كليات القمة ، ووضع القيود ورفع الأسعار بالنسبة للسلع الغذائية لنسف ما تبقي من عدالة في مجال ملء البطون بالحد الأدنى من مواد الإعاشة .

العدالة الاجتماعية في إسلامنا الحنيف واجب علي أولي الأمر (= أي السلطة) والأغنياء والقادرين ، ولو كانت قدرتهم متواضعة وقد أسس الإسلام للعدالة الاجتماعية من خلال آليات عديدة في مقدمتها الزكاة ، ثم الصدقات ثم الكفارات ، ثم تهيئة المجال بوساطة السلطة ليعمل الناس ويستثمروا الأموال ويمشوا في مناكب الأرض ويأكلوا من رزقه .

ومنهج الإسلام في العدالة الاجتماعية مغاير للمنهج الماركسي والمنهج الرأسمالي ، فالمال مال الله والناس مستخلفون فيه ؛ مهمتهم استثماره بالحلال وبما يرضي الله ويخدم جماعة المسلمين (ومن يعيش معهم مسالمة وموادعة من غير المسلمين) ولا مجال في

المنهج الإسلامي للصراع الطبقي الدموي الذي تحبذه الماركسية بين الفقراء أو الكادحين من ناحية وبين الرأسمالية أو الإقطاع من ناحية أخري أيضا فالرأسمالية الاحتكارية المتوحشة لا بقاء لها في ظل الإسلام ، ومن ثم فإن الصراع والاحتكار مرفوضان وكلاهما ضد العدل وضد الإسلام جميعا .. ثم إن تحريم الربا في لمعاملات الإسلامية يقطع الطريق علي الاستغلال والانتهازية التي تعصف بالفقراء والضعفاء وتهوي بهم إلي درك العوز والحاجة والفاقة . وقد اعتمد الماركسيون والرأسماليون الأساس الربوي في تعاملاتهم ونظمهم المالية علي المستويين المحلي والدولي ، وهو ما أجج الصراع الاقتصادي وجعل عملية الإقراض طريقا لتدمير من يقترضون بسبب الفائدة المركبة التي تستهلك العائد والأصول أحيانا ؛ فضلا عن الجهود التي تتبدد وفي الوقت نفسه فإن المقرضين يكسبون بلا جهد ويستولون علي كل شيء .

وقد تعرض العالم لأزمات عديدة اقتصاديا ، انهارت فيها بنوك ومؤسسات وشركات وخسرت أطراف عديدة كل ما لديها بسبب الفائدة والاحتكار والصراع الطبقي ، ولم تكن الأزمة الأخيرة التي بدأت في أمريكا بإفلاس بعض البنوك الشهيرة إلا حلقة من حلقات التدهور الذي يصيب الاقتصاد العالمي ويضع الفقراء والضعفاء في حضيض البؤس والمسكنة . وللأسف فان حزب السلطة في بلادنا يتحدث كثيرا عن العدالة الاجتماعية والعمل من أجلها بينما الواقع يؤكد أن الفجوة الطبقية تزداد اتساعا بين الأغنياء والفقراء وأن الطبقة الوسطي لم يبق من آثارها إلا ظلال باهتة لا قيمة لها وهي الطبقة التي تعد عماد المجتمع وصانعة حركته ونشاطه الاقتصادي والسياسي والثقافي .

لم يبق في بلادنا غير طبقتين الأولي وتمثل نحو ٩٠ % وأفرادها مسحوقون يعانون من الغلاء والفقر وقسوة الضرائب التي لم تترك شيئا حتى البيوت التي يسكتونها ، والأخرى التي تشكل النسبة الباقية وتحظي بالامتيازات والحصانة والتدليل وقد استحوذت النخبة في هذه الطبقة علي القروض الضخمة من البنوك الوطنية واستولت بطريقة مريبة علي ألوف الأفدنة المملوكة للدولة وهيمنت علي المقاعد السياسية ، واحتكرت الصناعات الأساسية وسيطرت علي الصحافة والإعلام . والأخطر من كل ذلك أنها استباحت القانون والدستور بعد أن اطمأنت إلي حماية السلطة . لقد شكلت هذه النخبة حزب السلطة الذي ارتفع صوته بالباطل ليتحدث عن العدالة الاجتماعية المزعومة والشعب يتضور جوعا وبؤسا وقهرا. هي تملك كل شيء وتقرر ما تريد وتفعل ما تشاء والشعب لا يملك من أمره شيئا لا يشارك في السياسة ولا يقرر في الاقتصاد ولا يستفيد بثروات بلاده .

العدالة الاجتماعية كائن خرافي يشبه العنقاء حين يتحدث عنه حزب السلطة ؛ ويعمل في الوقت ذاته علي تكريس الظلم الاجتماعي وتدليل النخبة بما لا تستحق . إن السلطة مسئولة

عن رعاياها جميعا وليس عن النخبة المدللة وحدها وهذه المسئولية تحتم علي السلطة أن تعدل بين مواطنيها في السراء والضراء ؛ ولكن الواقع يؤكد أن السلطة لا تعدل بل إنها تتخلي عن مسئوليتها تجاه الأغلبية ، وتركز جهودها من أجل النخبة المحظوظة تحت مسميات براقة عن الاستثمار والإنتاج والتصدير .. وحصاد هذه الجهود – للأسف – وضع اقتصادي مريض مثقل بالديون الخارجية والداخلية التي تتحملها الأغلبية وحدها ؛ وفي الوقت ذاته فإن السلطة لا تجد غضاضة في أن تعيش النخبة أو الأقلية المحظوظة في السراء وحدها ؛ تبني القصور الفارهة وتقيم الحفلات الصاخبة وتعيش حياة المترفين الذين يفسقون في المدينة ولا أكاد اصدق إيجار أو ثمن بعض الشقق في المباني المترفة التي يسكنها المحظوظون ؛ وأنا أتأمل أحوال العلماء والباحثين الذين يعيشون الشهر كله سكنا ومطعما وملبسا وبحثا علميا بألف جنيه في الشهر أو يزيد قليلا .

نحن نتمنى للمترفين السعادة الكاملة شريطة أن تكون أموالهم حلالا وأن تكون بعيدة عن دعم السلطة وثروات السلطة . وفي الوقت ذاته نحلم أن يتوزع الخير الوطني علي جميع المواطنين ، والبسطاء في المقدمة .

إن مفاجأة الحزب الوطني بتوزيع أسهم بعض شركات القطاع العام علي المواطنين مجانا تحت مسمي " إدارة أصول أموال الدولة" لا يحقق العدل الاجتماعي ؛ ولكنه يصب في مصلحة النخبة التي أفرزها حزب السلطة.. فالمواطن الفقير المحتاج سيبيع الأسهم إلي من يشتريها ، والنخبة الحزبية الحكومية هي التي تستطيع الشراء ، ومعني ذلك أن السلطة تبيع لحزبها أو نخبته تحديدا مصانع القطاع العام وشركاته بثمن بخس دون أن تتعرض لمقولات حول طرق البيع وأساليبه المريبة ، وبعدئذ من يدري هل تحتفظ النخبة بما تشتريه أو تبيعه لأعداء البلاد من المتربصين بها وبثرواتها .

العدالة الاجتماعية تحتاج إلي تخطيط يستمع إلي آراء المخلصين في هذا الوطن ويبتعد عن أفكار النخبة المحظوظة التي استولت علي أموال البلاد بالقروض وعلي أراضيها بالهبات الحكومية السخية ؛ فلم تستثمر شيئا ذا بال ولم تصدّر شيئا ذا قيمة ، ولكنها تاجرت في الهواء ومدن الترفيه وشواطئ الغرام أما الإنتاج الحقيقي .. أما المصانع الحقيقية .. أما التصدير الحقيقي فقد تركوه لقلة محدودة جدا من أصحاب الضمير أو الذين مازالوا يخافون الله .

العدالة الاجتماعية في كل الأحوال تقتضي ضرب الفساد وخاصة فساد النخبة الحزبية الحكومية بيد من حديد ، ثم الاستماع إلي أهل الاختصاص لتوزيع الأعباء والموارد علي جميع الناس .

***

مديح الحزب الوطنى !

مع اقتراب موعد المؤتمر السنوى الخامس للحزب الوطنى فى أول نوفمبر ٢٠٠٨م ؛ بدأت طلائع المداحين تنظم المقالات الطوال فى مدح الحزب وإنجازاته وتطوراته وأخذ بعضهم يتغزل فى الحزب وما يملكه من فكر وقيادات ورؤى سياسية واقتصادية واجتماعية بوصفه قاطرة الحراك والمتغيرات التى شهدتها البلاد فى السنوات الماضية ..
وراح بعضهم يُجيب عن سؤال : لماذا هو عضو فى الحزب الوطنى ولجنته السياسية أو تنظيمه الطليعى وفقا لما كان سائدا فى خالد الذكر الاتحاد الاشتراكى العربى ، وينفى عن الحزب ما يوجه إليها من تهم ، وما يوصم به من عيوب ومثالب ، ويتحدث عن التنمية ، وحجم الحرية التى يتمتع بها عضو الحزب بالمقارنة مع غيره من أعضاء الأحزاب الرسمية والسرّية !
ثم إن من المديح ما يذهب بعيداً ، حيث يعدّ الحزب أفضل المنصات لإطلاق الأفكار التى تصل إلى السلطة والمجتمع فى وقت واحد ! وبالإضافة إلى ذلك فإن الحزب يأخذ موقفاً واضحاً وصريحاً من قضية السلام والعمل من أجله لتتقدم مصر وتتحسن أحوال شعبها وتحق مكانتها بين الأمم ...
ويتبارى المداحون الذين يتمتعون بنفوذ لا يخفى فى لجان الحزب ، فى التفاخر بعضوية الجماهير وإقبالها عليه لدرجة وصولها إلى مليونى عضو ، على حدّ قول أحدهم ، وثلاثة ملايين على حدّ قول آخر ، من بينهم قرابة ثمانية آلاف عضو يحملون درجتى الماجيستير والدكتوراه ..
من واجب مداحى الحزب الوطنى أن يفخروا بما يتحقق على الورق ، وما ليس له وجود على أرض الواقع ، من قبيل التنمية القائمة على الاستثمارات المستمرة فى البشر والأرض والموارد المصرية المختلفة ، من أجل خلاص مصر والمصريين من الفقر والفاقة والمشكلات الدورية والأزمات المتعاقبة .
ويتحدث بعضهم عن إنجازات واقعية وملموسة فى الواقع المصرى حققها الحزب وقياداته الوطنية ، مسّت مصالح الناس ، وصبّت فى اتجاه تحسين أحوالهم المعيشية ، مع الحفاظ على أمن واستقرار البلاد ، ومواصلة حركة التغيير والتطوير والإصلاح فى كل المجالات .
ويرى مداحو الحزب أن معارضى الحزب كذابون ومزوّرون وأن حملاتهم لن تتوقف مما يستوجب حملات مضادة لكشف الحقائق وتوضيح المواقف وتفنيد الآراء ..

وبداية ، فإن من حق القوم أن يفخروا بحزبهم ، وأن يقولوا فيه ما يشاءون ، حتى لو لم يكن له ظل من الحقيقة ، فقد أغدق عليهم الحزب بلا حساب ، ورفعهم فوق ما كانوا يحلمون به ، ولك أن تتخيل مثلاً عضواً بائساً فى حزب العمال الشيوعى تطارده السلطة مع بقية أعضاء حزبه ، ويحاصر فى جريدته ، فلا يكتب إلا بقدر ، ولا ينشر إلا ما يسمح به الآخرون ، وفجأة يتحول إلى عضوية الحزب ، وتنظيمه الطليعى ، ويصبح فجأة رئيس تحرير، وكاتباً فى أعرق الدوريات ، ومتحدثاً فى تلفزة السلطة والفضائيات ومطلوبا فى الندوات والمؤتمرات ، ويجد اهتماماً من كبار المسئولين حين يمرض أو يعايش مناسبة اجتماعية حزينة أو سارة .. وتتدفق عليه الأموال من ذات اليمين وذات الشمال ؛ بينما رفاقه الذين ظلوا فى مواقعهم يتضورون بؤساً ويعانون الحصار والملاحقة ولا يجدون فرصة لتحقيق ذواتهم ، أو التعبير عن أنفسهم .. بلا شك فصاحبنا لابد أن يكون مبالغاً فى مدائحه ، بل مختلقاً لها ، من أجل الاستمرار فى رغد العيش وبلهنيته ، والتنكر لكل القيم التى تربى عليها وسعى لنشرها !

ولك أن تتصور يساريّاً آخر متطرفاً ، يتحول بفعل " البراجماتية " إلى متأمرك متعصب للأمركة ، بعد سقوط " وليّ النعم " فى موسكو ، ويكون مدخله إلى حزب السلطة بداية لغرقه فى نعيمها وعطاياها ومناصبها ، لدرجة أنه يشير باستعلاء ونرجسية إلى محاضراته وندواته فى العواصم الكبرى ، وكأنه فارس من العصور الوسطى !

إن الحزب الوطنى الديمقراطى هو حزب السلطة بلا ريب ، ويضم قوماً لا يجدون حرجاً فى التحول إلى حزب آخر إذا تحوّل صاحب السلطة إليه ، وسبق أن جاء هؤلاء من حزب مصر الذى كان يقوده رئيس الوزراء الأسبق " ممدوح سالم " بعد أن أعلن الرئيس السادات – رحمه الله – عن إنشاء الحزب الوطمي ، وكانوا قبل عضويتهم فى حزب مصر فى منبر الوسط ، ومن قبله فى الاتحاد الاشتراكى ، ومن قبله فى الاتحاد القومى ، ومن قبله فى هيئة التحرير ، وما زال البعض حيّاً ممن أدركوا تنظيم السلطة فى بدايته ، وإن صاروا قلة نادرة بحكم نهاية الأعمار والآجال لمن رحلوا .

" تنظيم السلطة " كيان وهمى خرافى لا وجود له فى الشارع كما يدعى مداحو الحزب الوطنى ، وإن كانت مقراته ولا فتاته تملأ الشوارع والحارات والميادين ، إلا إنها فارغة من المضمون ، وخالية من المنهج ، اللهم إلا تأييد السلطة ، والهتاف من أجلها ، ولو أخفقت فى كل الميادين والمجالات .

لا يوجد عضو فى حزب السلطة ، على استعداد للتضحية بمكاسبه ومصالحه ، ولذا يهتف ويغنى وينشد للحزب القائد ، ومن المفارقات أن الذين يعلنون أحيانا عدم رضاهم عن سياسات الحزب ، ويهدفون إلى لفت الأنظار إليهم ، لا يستقيلون منه ، ولا يتنازلون عن امتيازاتهم ، لسبب بسيط ، أنهم يمدحون قياداته الملهمة ونظرياتها التاريخية التي تمنح وتعطي !

ومن المؤكد أن الحزب على مدى ثلاثين عاماً تقريباً ، وهو يحكم مصر ، أو يؤيد حكومة مصر ، أخفق إخفاقاً تاماً فى مسألة بسيطة حققتها دول الأرض جميعاً ، وهى توفير رغيف الخبز للإنسان المصرى وجرعة ماء نظيفة ، دون إهدار كرامته وضياع وقته وقتله أحياناً فى طوابير الانتظار والزحام .

ولا أدرى كيف يكون حزباً فاشلاً فى توفير الرغيف وجرعة ماء ، يمكن أن يكون قاطرة التغييرات والحراك الاجتماعى ، وهو الذى لا يتحرك ولا يمضى إلا إذا نزلت عليه التعليمات من أعلا وجاءته التوجيهات من فوق ، ويكفى أن يعلن المسئولون بداية من رئيس الحكومة وأمين الحزب حتى أصغر مسئول فى صفط اللبن ، أنه يعمل بناء على توجيهات القيادة السياسية . فأين هى القاطرة المزعومة ؟

إن الحزب بقياداته التى تسمى رجال الأعمال – وأسميهم رجال القروض – لا يملك من أمره شيئاً لسبب بسيط وهو أن قياداته مشغولة بمصالحها وتنمية مدخراتها فى بنوك مصر ، وبنوك الخارج ، ولا يهمها أن تكون هذه المدخرات حلالاً أو حراماً ، جاءت نتيجة عرق وجهد حقيقى يخدم الملايين من المصريين ، أو جاءت نتيجة تسقيع الأراضى الحرام ، أو بيع الهواء ، أو

شركات الاستيراد والتصدير (استيراد ماذا ؟ وتصدير ماذا ؟ اسألوهم !) ، ومن ثمّ ، فإن ما تقوله السلطة هو الذى يتم تنفيذه ، ولو كان مخالفاً للتوافق الاجتماعى ، ومعاديا للطبقات المسحوقة (تأمل التعديلات الدستورية ، وقوانين الضرائب ، ومرتبات العاملين فى الدولة) ؛ بل إن بعض القوانين التى تم إقرارها جاء لصالح بعض هذه القيادات (تأمل قانون المرور على سبيل المثال) . ولن أتكلم عن الحوادث المشينة التي ارتكبها هؤلاء، ودخلوا السجن بسببه ، فهو مما يعلمه العامةفي مصر وخارجها!

لقد أثبت الحزب جدارته بالفشل الذريع – إن صح التعبير – فى تسيير شئون الناس على مدى ثلاثين عاماً ، وكانت أبرز الكوارث والمصائب مرتبطة بقياداته التى طعمت بعد جوع وأمنت بعد خوف واسأل عن : غرق العبارات ، انهيار العمارات ، انقلاب القطارات حوادث الدويقة وحرائق مجلس الشورى والمسرح القومى ومصانع المحلة و٦ أكتوبر ، وغيرها .

إن حجم الحرية فى مصر ضئيل جداً ، وهذا الحجم لا يمنح إلا لمليونيرات الحزب بإصدار صحف صفراء وقنوات مضللة وأبواق منافقة وأحزاب ورقية أو عائلية لا تهش ولا تنش ، وتعمل فى خدة النظام البوليسى الفاشى ، مثلها مثل حزب السلطة .

هل الحرية تعنى إقصاء الأغلبية الحقيقية وحرمانها من حق التعبير السلمى ، ولو فى جريدة أسبوعية ؟

لقد فرض حزب السلطة ، أو طُلب منه أن يلغى الانتخابات التى يشرف عليها القضاء وأن يحرم القطاعات العريضة من حق الترشيح والمشاركة السياسية ، بل وأن يفرض حرمان الشعب المصرى المسلم من تطبيق شريعته فكراً وسلوكاً عقيدة وعملاً ، وأزرى بالتعليم الجامعى والتعليم العام ، بإخضاعه للمؤسسة الأمنية وحرمانه من الإنفاق اللائق ، وصار الأستاذ أو المعلم فى أسوأ الأحوال المعيشية ، مالم يكن له دخل آخر ، حتى صارت جامعات العدو ضمن التصنيفات الدولية ، وليس بينها جامعة مصرية واحدة !

مصر مستبعدة فى ظل حزب السلطة ، ولا تملك من أمرها شيئا ، ولذا فهى على المستوى الإقليمى والدولى ، لا يؤبه لها أو بها ، لأنها صارت أضعف من أن تقوم بدورها ، اللهم إلا إذا كان لخدمة دولة الهيمنة والتسلط ، وما السلام المزعوم والاستقرار المتوهم إلا حالة من الاستسلام والتراضخ لضعف والوهن.

لن أتحدث عن الواقع الاقتصادى ولا الديون ولا انهيار البورصة المصرية ، ولا الأموال المنهوبة والمهربة ، ولا القروض التى كانت تمنح بالأمر السياسى ، وأشار إليها مؤخراً محافظ البنك المركزى المصرى ، ولا .... ولا .... فالحال لا تسرّ ولا تفرح .

وبعدئذ ، يفجعك مداح وطنى بأن الحزب كان هو المبادر لكل إصلاح سياسى واقتصادى واجتماعى فى السنوات الماضية وهو المتحمل – وحده – لضريبة التمسك بسياسات العدل الاجتماعى ، والتمسك بحقوق المواطن والمرأة والطفل !

هل نعتذر لبريخت حين نتصرف فى مقولته : هنالك شئ فى عالمنا أيها " المزيفون " غلط ؟ أم نقول لهم إن كل عالمكم غلط ؟

إنكم لم تعيشوا بين الجماهير ، ولم تسمعوا لأنينها ، ولم تحترقوا بنيران الفقر والجوع والعرى .. منكم لله .

***

الفساد والإصلاح .

يُثير المؤتمر السنوي الخامس لحزب السلطة في مصر ، قضايا عديدة وخطيرة في الواقع المصري المعاصر ، في مقدمة هذه القضايا أنه لا توجد في مصر سياسة ولا سياسيون . وقد يعترض بعض الناس ، مشيرين إلى العدد الضخم من الأحزاب والمجالس التشريعية والمحلية والوزارات والانتخابات والصحف والندوات والمؤتمرات .. وهذا الاعتراض صحيح ، ولكنه لا يعبر عن سياسة حقيقية ولا سياسيين حقيقيين ، لأن السياسة الحقيقية تعنى العمل على تغيير الأوضاع القائمة ، والانتقال بها من سيئ إلى حسن ، ومن حسن إلى أحسن ، وهذا لا وجود له في الواقع المعيش اللهم إلا إذا عددنا خطب قادة حزب السلطة ، ومذكراته الإنشائية ؛ هي التغيير والتطوير ، والانتقال من حال غيرطيبة إلى حال طيبة . وإذا كانت السياسة منعدمة فلا يوجد بالتالي سياسيون ، وما قادة وزعماء الأحزاب الرسمية إلا مجرد امتداد لحزب السلطة ، وجميعهم لا يملكون من أمرهم شيئا ، لأن الذي يقرر ويغير هو رئيس الدولة وحده ، ولا أحد سواه ، ويعلم الناس أن ما تقوله الأحزاب وصحفها والصحف المستقلة والأفراد ، ما هو إلا صيحة في واد لا تهز أذن مسئول صغير في حزب السلطة ، وكما أشرت في موضع آخر ، فإن حزب السلطة مهما بلغ عدد أعضائه لا يدين إلا بدين رئيسه ، أياً كان هذا الرئيس .. وإذا افترضنا أن الرئيس تبنى السياسة الاشتراكية غدا ، دون السياسة الرأسمالية اليوم ، فسوف ينقلبون جميعاً إلى اشتراكيين ، وكذلك الحال لو تبنى السياسة الإسلامية فسوف يزايدون على أعرق الجماعات الإسلامية وينافسونها في الهتاف بالإسلام ..

إذا كيف نفسّر هذا العدد الضخم الذي ينتسب إلى حزب السلطة ، وكلام كثير منهم عن التغيير والتطوير والحراك السياسي والاجتماعي ، وظهور العشرات بل المئات منهم على مدى الأيام والليالي التي عقدها مؤتمر الحزب الخامس فوق شاشات التلفزة الرسمية والخاصة ، وخلفها شعار الحزب ، لتحلّل وتفضّل وتناقش وترد على القضايا المثارة التي صارت مستحيلة الحلول ، في ظل وضع بائس يطرح مصطلح " الاستقرار " ، تأكيداً على بقاء الوضع على ما هو عليه ؟ دعونا أولاً نذكر بما هتف به أحد أعضاء مجلس الشورى لأمين السياسات حيث خاطبه قائلاً : " رأيت فيك قوة ناصر وطموح السادات وحكمة مبارك "

وهذا الخطاب ، لا ينفصل عما نطق به من يسمى أمين التنظيم في السياق ذاته واصفا أمين السياسات بأنه " مفجّر ثورة التغيير والتطوير " .
والمسألة كما نرى لا تختلف عما كان يهتف به نواب سابقون في مواجهة الرؤساء منذ انقلاب ١٩٥٢م حتى اليوم . فهي في مفهومها العام مسألة هتافية ، وإن كانت تحمل من الدلالات ، ما يحتاج إلى تفصيل أوسع ، لا تحتمله المناسبة ، إنه منهج " كهنة آمون " في مديح السلطة وعبادة الحاكم ، الذي يجعل الأوضاع في حالتها الراهنة هي المراد ، ومنتهى الآمال .
ودعونا ثانيا نسأل : ما هي أوجه التغيير والتطوير والحراك المزعومة في كلام قيادات وأبواق حزب السلطة ؟
هناك موضوعان أساسيان تعب الناس من الكلام عنهما الأولى الإصلاح والأخرى الفساد . وكلتاهما ترتبط بالأخرى ، فالإصلاح يعنى القضاء على الفساد ومحاربة الفساد تعنى الإصلاح السياسي . فهل تحقق إصلاح أو حورب فساد ؟
بالتأكيد لم يحدث شيء من ذلك أبداً ، وسبق لرئيس حكومة حزب السلطة أن قال في تصريح علني متهماً الشعب المصري بعدم النضج ، إن الديمقراطية فوق مستوى المصريين .. هل هناك إصلاح بدون مشاركة ؟ وكيف تتحقق الديمقراطية بإقصاء الأغلبية الساحقة من المواطنين بحجة عدم نضجهم ؟ وهل يتأتى الإصلاح – أيا كان نوع هذا الإصلاح – بعيداً عن اختيارات حقيقة للنواب والمسئولين في انتخابات حرة نزيهة ؟
لقد صار من المستحيل – دستورياً وقانونياً – أن يتسرب نائب أو ممثل حقيقي للأمة عبر نظام الانتخابات ، الذي تحكمه عملية التزوير بمعرفة السلطة ورجالها ، علناً وفى ضوء النهار ، وأمام كاميرات التلفزة العالمية .. فعن أي إصلاح يتحدثون ؟
الإصلاح يقتضى نظاماً سياسياً واقتصاديا شفافاً تحكمه رقابة قانونية ودستورية لا تغلها السلطة بقيود الاستبداد أو العسف أو المزاج ، وهذا النظام لا يوجد في بلادنا على أرض الواقع ، وإن وجد على صفحات الكتب !
أما الفساد ، فقد قال عنه عضو قيادي في حزب السلطة قبل عقد من الزمان أو أكثر إنه وصل للركب ، واليوم فقد وصل إلى ذؤابة الشعر ، وغرقت البلاد فيه إلى القاع ، ولا أحد يعلم هل ستنجو من آثاره أم تبتلعها مياهه الآسنة ؟
لقد ارتبط الفساد بما يُسمى " رجال الأعمال " – أو رجال القروض بمعنى أدق – وامتد إلى الجهاز الإداري والتنفيذي والتعليمي والثقافي والصحفي ، وتفاوت الفساد من جهة إلى أخرى ، ولكن القاسم المشترك ، هو استخدام النفوذ والرشوة والبلطجة والتزوير والمداهنة والتملق وغير ذلك من أدوات الإفساد والتخريب ..
ولعل أغرب ما كشفت عنه الأحداث مؤخراً بعد سفح أموال الدولة أو القروض بالملايين على أقدام الغانيات ، هو سرقة آلاف الأفدنة من أملاك الدولة تحت راية القانون وتسقيعها ، وبيعها للدولة (!) أو الأفراد بمبالغ خرافية ، وأجهزة السلطة تسمع وترى ولا تتحرك إلا بعد أن ظهرت صحيفة أحدهم تتهم مسئولا بأن أصوله تسمع وترى ، ولا تتحرك إلا بعد أن ظهرت صحيفة أحدهم تتهم مسئولا بأن أصوله ليست عريقة ، أو أن آخر تحالف مع الغزاة اليهود ، فينتفض هذا المسئول أو ذاك ، للدفاع عن سمعة العائلة الكريمة أو عن نفسه ، وذلك بمصادرة المسروقات على امتداد ثلاثة وخمسين كيلو مترا طريق مصر - إسكندرية الصحراوي !
أي إن مكافحة هذه " اللقطة " الفاسدة لم يكن من أجل القانون أو الدستور أو النظام ، ولكن من أجل غاية شخصية حركت المسئول لينتقم من الشخص الذي انفجرت فجأة بلاعة اتهاماته المخجلة ! فأين كان حزب السلطة وحكومته ، والمتهم له جريدة أسبوعية تنطق باسمه ، ويتصدرها مقاله الأسبوعي المزين بصورته ، واسمه بالبنط العريض ، وتوزع أعدادا غير قليلة في العاصمة والأقاليم ، ويشارك فيها بالرأي عدد من الكتاب المحترمين ، فضلا عن مجموعة كبيرة من الصحفيين والفنيين ؟

تأكد المصريون أن الفاسد لا يحاسب إلا إذا ارتكب خطأ أو خطيئة في حق قيادات حزب السلطة الذي يقيم مهرجانا سنويا يتكلف الملايين التي يمكن أن تحل كثيرا من مشكلات أهل " الدويقة " مثلا ، وتوضع ضمن حسنات هذه القيادات أمام الله وأمام الناس . كما تأكد المصريون أن الفاسد إذا ضمن رضا القيادات ممن هم أعلى منه في حزب السلطة فسوف يظل يتمرغ في فساده آمنا مطمئنا ، لا يزعجه أحد ، حتى لو أكل مال الدولة كله .. ألا يتمتع بحسن السير والسلوك ؟
ومن المفارقات أن حزب السلطة لم يشر من قريب أو بعيد إلى قضية الفساد ضمن أعمال المؤتمر الخامس ، التي كان يفترض أن تحمل هذه القضية التي ضج منها الناس ، بوصفها ذات خطورة كبيرة ، بل هي الخطر الأكبر على الأمة ، ولكن منشورات المؤتمر اكتفت أن تقلد بيانات اللجة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي ، حيث تحمل بلاغة شكلية ، وخطبا جوفاء ، وآمالا لاتربطها بأرض الواقع أسباب أو أقدام !
وإليك نموذجاً من هذه البلاغة :
[فكر جديد لمستقبل بلدنا (انتقلوا إلى الركاكة بعد عامية : بلدنا بتتقدم بينا) ، سياسات ورؤى وأفكار جديدة ومشروعات قوانين ونظام انتخابي جديد – المؤتمر يناقش قضايا العدالة الاجتماعية .. وتطبيق اللامركزية ، وتمكين الفئات الأكثر احتياجاُ .
..... نظام انتخابي جديد يتسم بالوضوح في التصويت وإتاحة الفرصة (!) للأحزاب في التمثيل البرلماني .
..... تجديد الالتزام بمواصلة برنامج الإصلاح بخطى ثابتة وطرح سياسات اجتماعية للفئات الأكثر حرماناً] (الأهرام ١/١١/٢٠٠٨م) .
ثم تقرأ عن التطوير التشريعي في مجال الأحوال الشخصية المسلمين (كيف ؟ وهل المسلمون في حاجة إلى تطوير أحوالهم الشخصية ؟ وعلى فرض أنهم في حاجة فهل هذه قضية استراتيجية ؟)
ثم يقول المؤتمر طرح رؤية للارتفاع بنسبة تمثيل المرأة في البرلمان (هل تعلمون أن المرأة في حاجة إلى ثوب يسترها ، ولقمة متوفرة تشبعها ، وجرعة ماء نظيفة ترد عطشها ؟) .
تمنينا أن ينجز حزب السلطة بعض الانجازات الصغيرة الممكنة ، مثل إلغاء نسبة الخمسين في المائة عمالا وفلاحين (رأيت جلبابا واحداً أو اثنين وعمامة واحدة في المؤتمر) ، والبحث عن توفير رغيف خبز غير مسموم .. بلاش القضايا الأساسية مثل الإصلاح والفساد والتوافق الاجتماعي ومواجهة الخطر في منابع النيل وعلى الحدود الشرقية والبحر الأحمر .. ولكن لا حياة لمن تنادى !

***

استقيلوا قبل أن تُقالوا !

مع احترامى الكامل وتقديرى العظيم لما يُعلنه قادة الإخوان المسلمين من مسبّبات لاستمرارهم فى مشاركة النظام البوليسى الفاشى لعبة الانتخابات الصورية ، فإن كرامتهم عندى فضلاً عن كرامة الشعب المظلوم تسبق أية ذريعة وأية حجة ..

لقد أعلن الجلاد الصغير ، بعد أن سحل نائب الإخوان فى المنوفية ومرغ وجهه فى الوحل ، ومزّق ملابسه ، أن النائب والمجلس الذى ينتمى إليه " على جزمته " ! وقد صدق الجلاد الصغير كما يصدق الجلادون الكبار فى أن البلد كلها على " جزمتهم " ، لأنهم ملوكها الحقيقيون ، وسادتها الفعليون ، وهم الذين يُحركون الأحداث ، ويصنعون الأبواق ، ويتدخلون فى كل صغيرة وكبيرة .. أليست البلد بلدهم كما يقول صغارهم ، والواحد منهم لما يزل ملازماً تحت الاختبار ؟

بالطبع ، فلم يكن منتظراً من الرجل الثانى فى البروتوكول أن يثأر لكرامة مجلسه ونوابه ، بل إنه تلقى – كما نقلت بعض الأنباء – وصلة توبيخ عنيفة ، عقب نشره بياناً صحفياً يُشير فيه إلى أنه استدعى وزير الداخلية ليعتذر للمجلس ، فقام على الفور بنفى صدور البيان ، وأتاح لنواب الإخوان أن يتحدثوا عن الجزمة ومن عليها ، ولكنه نهرهم وأوقفهم عند حدّهم لأن طريقة كلامهم لم تُعجب سيادته ، مما يعنى ضمناً أن وجود مجلسه على " جزمة " الجلاد الصغير مقبولة ضمنياً ، سواء كان فوق الجزمة أو تحتها ، المهمّ ألا يستمر نواب

الإخوان فى رفع قميص النائب الذى مرّغوا أنفه فى الوحل ، وسحلوه فى الشارع ، فى وجهه ووجه نواب السلطة ، فقد سبق لأخ له من قبل اسمه " عصام العريان " أن صفعوه على وجهه جهاراً نهاراً عام ١٩٨٨م ، وانتقل المجلس بعدها كالعادة إلى جدول الأعمال ، والتاريخ يُعيد نفسه فى بعض الأحوال !

لقد تنبأ الدكتور محمد حبيب نائب المرشد أن المجلس – الذى هو على جزمة أصغر جلاد فى أزهى عصور الديمقراطية – سيُحل عام ٢٠٠٨م . وأنا أتنبأ أنه سيُحل قريباً جداً ، بل أقرب مما يتصور بعض الناس . لسبب بسيط جداً ، هو أن النظام البوليسى الفاشى ، لم يعد فى حاجة إلى أن يتجمل – كان يكذب ويتجمل .. الآن هو يصدق مع نفسه ، لأنه لم يعد يخاف أحداً فى الداخل أو الخارج ..

أحزاب بير السلم راضية مرضية ، تترشح وتنتخب الحزب الوطنى ، لتحصل على المعونة ، وبعضها استطاع بشطارته " التقدمية " " المستنيرة " أن يحصل فى صفقة مفضوحة على أحد مقاعد الشورى فى الإسكندرية بالتزوير ، وأن تتم الصفقة على حساب مرشح الوطنى الذى لم يجد له ظهراً يسنده ضمن كبار الوطنى مما اضطره أن يخرج إلى أنصاره ويعلن أمام الناس والإعلام قائلاً : حسبى الله ونعم الوكيل !

والخارج كما نعلم سعيد بهذا النظام – حتى لو أبدى بعض الملاحظات الشكلية – لأنه يُقدم له خدمات استراتيجية عظيمة لا تقدر بثمن ولو كان أضعاف المعونة الأميركية والأوربية !

لقد جرب النظام البوليسى الفاشى المادة ٨٨ – المعدلة دستوريا – فى انتخابات الشورى ، ولم يذهب الناس إلى اللجان – اللهم إلا فى الدوائر التى ترشح فيها الإخوان – ومع ذلك قام الموظفون " بالواجب " وزيادة ، وحقق الوطنى فوزاً كاسحاً ماحقاً صاعقاً ، أذهل الأعداء قبل الأصدقاء ، وكله بالقانون ، وتحت إشراف قضائى عام (؟) ومن لم يعجبه عليه أن يخبط دماغه فى أقرب حائط .وغداً ستصدر القرارات العليا بتعيين أحباب النظام البوليسى الفاشى فى مقاعد المعينين ، ومنهم بالطبع بعض رؤساء أحزاب " بير السلم " ، ليقول للناس : إننى متسامح وأعيّن المعارضة التى لا تنجح فى انتخابات (التزوير) فى المجلس التشريعى الأول !

بقى يوم واحد على الدورة الحالية لانعقاد مجلس الشعب ، وأنا أكتب هذه السطور ، أى إنه سيدخل فى إجازة الصيف ، ليعود بعدها لإصدار قانون الطوارئ والأحكام العرفية على الناشطين السياسيين من كل صنف ولون ، وسيُعمل المادة ١٧٩– المعدلة – من الدستور إعمالاً فعّالاً ، بحيث يصطاد الصحفيين والكتاب الذين يصعب حبسهم وفقاً لقانون النشر ،

ليُحاكمهم أمام المحاكم الاستثنائية العسكرية بحيث يلبسون ملابس السجن الحربى كما حدث لطلعت السادات فى أقل من عشرة ايام .

وبعد الانتهاء من التصديق على قانون الأحكام العرفية الذى ستوافق عليه الأغلبية ، يتم حل المجلس ، مجلس الشعب طبعا ، ليأتى مجلس جديد على طريقة مجلس الشورى ، ولن يكون فوق الجزمة هذه المرة ، ولكنه سيكون تحتها دائماً .. ولن يدخله عضو واحد من الإخوان المسلمين !

أليس من الأولى والأشرف والأكرم والأجدى والأقوى أن يُقدم أعضاء الإخوان ال ٨٨ استقالتهم الجماعية الآن قبل الغد ، فى مؤتمر صحفى ، يقولون فيه كل ما يريدون ، ويكسرون الحصار الإعلامى ، ويتفرغون – كما قلت فى المقال السابق – لتحرير الشعب من الغيبوبة التى وضعهم فيها النظام ، بتربيته تربية قرآنية تقوم على العبودية لله وحده ، ورفض كل القيم التى تُخالف سلوك الإسلام ومنهجه ؟

أليس من الأفضل الاستقالة قبل الإقالة ؟

هذه ليست سلبية ، وليست هروباً ، وليست تخلياً عن الواجب ، ولكنها ببساطة شديدة رفع غطاء الشرعية التى يتباهى بها النظام أمام العالم ، حيث يقول إن لدى ٨٨ عضواً من " المحظورة " وأنا أتقبلهم وأستمع لهم وأسمح لهم بتقديم الاستجوابات وطلبات الإحاطة والأسئلة . ولكنه بالطبع ، لا يقول للعالم إننى أنتقل إلى جدول الأعمال ، وكأن شيئاً لم يكن ، وأن رجالاتى وفيهم بالطبع ، الفاسدون المفسدون ، لا يتأثرون بما يقوله أعضاء " المحظورة " وغيرهم ، لأنهم يبيعون الحديد بأسعار مضاعفة للشعب المصرى البائس ، ويقدمونه رخيصاً للمستوطنات الصهيونية ،في فلسطين المحتلة ، وكذلك يفعلون بالأسمنت والخشب ، ويستوردون الأغذية المسرطنة والدم الفاسد والأكياس المضروبة ، ويقدمون التعليم المغشوش والإعلام الكذاب والثقافة المزيفة والأدب الساقط والفكر المنحرف والأيام السوداء على الفقراء والمساكين الذين يمثلون أغلبية الشعب المظلوم ؟

استقيلوا قبل أن تقالوا ، فهذا خير من الاستمرار فى تقديم النظام إلى العالم وعليه مسحة من الشرعية المزيفة ، والوضع الملتبس ، وخير لكم أن تكونوا بعيدا عن مجلس " الجزمة " ورئيسه المبجل الذى لا يمل من الإعلان عن " الموافقة " ، ولو كانت خاصة بوجود المجلس تحت ... أو فوق .... ولله فى خلقه شئون!

***

ولم لا يعذّب المصريون في الخارج أيضا ؟!

قيل إن وزارة الخارجية المصرية استدعت القائم بالأعمال في سفارة إحدى الدول العربية للاحتجاج على تعذيب اثنين من العمال المصريين بسكب ماء النار على جسديهما ، فضلا عن الضرب والإهانة ، والسبب كما قيل مخالفة قوانين الإقامة !

شكر الله سعي الوزارة والحكومة والشعب جميعا ، فقد قاموا بالواجب وزيادة ، من أجل عاملين بسيطين لا يمثلان أهمية للنظام البوليسي الفاشي الذي يحكمنا ويطعمنا ويسقينا ، ويسهر على راحتنا في البر والبحر والمنافي وأماكن الغربة والهجرة ، حتى بلاد الواق الواق ..! ماذا نريد أكثر من ذلك ؟ إننا طماعون وجشعون ، ولا يعجبنا العجب ولا الصيام في رجب..نبحث عن النكد بسن إبرة !

والأمر يا سادة ليس مجرد تعذيب اثنين من العمال المصريين ضاقت بهما السبل في بلدهما الذي يملك خيرا كثيرا ، فخرجا يبحثان عن المزيد في بلاد أخرى ، وكان أن تعرضا لما يتعرض له كل البشر من متاعب ومصاعب ؛ لم يسع الأخوة المضيفون إلى حلها بالتي هي أحسن ، ولكنهم انطلقوا من مقولة أن المصري لا قيمة له في وطنه ، وأن النظام البوليسي الفاشي في بلده يعذب الناس في أقسام الشرطة والسجون والمعتقلات حتى الموت (احمدوا ربنا أن بقى العاملان على قيد الحياة ولم يموتا بماء النار!) ، ومن ثم فلا غضاضة

أن يمارس الأشقاء العرب وغير العرب التعذيب أيضا اقتداء بالسنة الحميدة التي سنتها وزارة الداخلية المصرية العريقة ، وهي التعذيب حتى الموت ! أليست هي الرائدة والقائدة والشقيق الأكبر ؟

قبل شهور ، وفي هذا البلد نفسه تم ضرب دبلوماسي مصري وسحله وتمزيق ملابسه في احتفال رسمي وعلى رءوس الأشهاد ، ومع ذلك لم يحدث شيء ، فقد انتهى الأمر بأن الدبلوماسي غلطان هو والذين خلّفوه والشعب المصري كله ! ويجب على المصري حين يهان خارج بلاده أن يشكر الذين أهانوه وضربوه وسحلوه عملا بمبدأ : " ضربك شرف يا أفندينا "! ونحن كما رأى بعض الكتاب المصريين شعب من العبيد ، وزاد بعضهم إننا شعب لا يصلح إلا بالكرباج !

وقبل أيام تم الاعتداء على إمام مسجد في بريطانيا العظمى اسمه الشيخ محمد السلامونى ، وفقد بصره تقريبا نتيجة للعدوان ، ومع ذلك فقد كان أول من اهتم به السفارة السعودية في لندن ، وليست السفارة المصرية ، لدرجة أن أعلنت أنها ستعالجه على حساب المملكة ، وبعدها غار رئيس الوزراء المصري فقال : لا ، بل نحن الذين سنعالجه ! أرأيتم الشهامة ؟

وقبل ذلك اختفى السفير " إيهاب الشريف " في بغداد ، ولم يعثر على جثته حتى اليوم ، ووزارة الخارجية الموقرة كانت تعلم جيدا أن بغداد بلد الرشيد تفتقد الأمن والأمان ، ومع ذلك أرسلته وآخرين إلى هناك ، لأن المصري رخيص الثمن ولو كان دبلوماسيا ممثلا للسلطة الحاكمة ، بل لو كان أعلى من ذلك منصبا ومكانة !

وفى بلد عربي آخر حدث خلاف بين العاملين المصريين وصاحب العمل على الأجر ، فقامت قبيلتان بحرق الأخشاب والأدوات التي يستخدمها المصريون في أعمال المعمار ، وأطلق أفرادهما عليهم الرصاص فأصابوا العشرات وهرب المئات من البائسين المصريين إلى الحدود وإلى داخل البلد العربي المضياف !

وهذا البد العربي المضياف كريم لدرجة أنه يرحل ضيوفه المصريين وحدهم دون سابق إنذار إلى الحدود المصرية ، ولا مانع لديه أن يضعهم في القلابات التي تقذفهم هناك في العراء ، وهو يعلم أن الحكومة المصرية ستقدم له الشكر ، ثم تخرج وزيرة القوى العاملة لتنفى حدوث أي شيء بالمرة ، كما نفى مسئول في الخارجية المصرية أن ما حدث من إحراق لأخشاب المصريين وإطلاق النار عليهم غير صحيح ، وأنه لم يتم ترحيل غير عدد محدود جدا من المخالفين للإقامة !

وفي بلد عربي ثالث قبض على العشرات بسبب التهمة التقليدية ، وهي مخالفة قوانين الإقامة ، وحاول الضحايا الاتصال بالسادة الأشاوس والنشامى القائمين على أمر القنصليات

أوالسفارة في البلد الشقيق ، ولكنهم أخفقوا أو فشلوا في الاتصال بأحدهم ، وحين اتصلوا ببرنامج تلفزيوني مصري اتصل بدوره بواحد من الأشاوس والنشامى الدبلوماسيين المصريين ، قال – لا فض فوه – إنهم لا يتبعون قنصليتي ! فطلب منه المذيع أن يتصل بزملائه في القنصلية المعنية ، ولكنه راوغ في الإجابة ، وقال كلاما نيئا لا يُؤكل ، ولا يُشبع ، والمذيع يرجوه ويستجديه ، ولكن صاحبنا ملتزم باختصاصاته التي لا يريد أن يتجاوزها !

وأينما يمّمت وجهك ؛ وجدت المصري في بلاد الله ، خلق الله ، مستضعفا ذليلا ، لا يسأل عنه أحد ولا يهتم به أحد ، وقد أدرك العالم ذلك فصار يمارس الاستضعاف والإذلال ضد المصري دون أن يخشى ملامة أو رد فعل باهت أو صاعق ، بل إن الغرباء حين يدخلون مصر يتصرفون وكأنهم أصحابها أو أكبر من أصحابها ، وما بالك بكلاب الأجانب التي تعقر المصريين دون أن يهتز لأصحابها جفن ؟ بل يجدون من المصريين من يدافع عنهم ، ويثنى عليهم ويمدحهم بمطولات غير شعرية نظير ما يطعمونه ؟

عشرات الحالات ' بل مئات ، بل آلاف الحالات من العدوان على المصري البائس في الدول العربية الشقيقة ، والأجنبية غير الشقيقة ، ولا أحد يتحرك في الخارجية الموقرة ' ولا وزارة العمل ، ولا التضامن الاجتماعي (يعنى إيه تضامن اجتماعي ؟) .. والنتيجة أن المصري لا قيمة له ولا يحزنون !

رأيت في بعض البلاد العربية سفيرا عربيا لدولة عربية صغيرة لا تتجاوز مساحتها محافظة المنوفية ؛ يطارد المسئولين الذين يمثل حكومته لديهم من أجل عشرات العاملين من بلاده في هذه الدولة . هذا يريد أن ينتقل إلى المكان الفلاني ، وهذا يعاني من مديره ، وذاك في خصومة مع الكفيل ... مما اضطر المسئولين في هذا البلد أن يصدروا أوامرهم لبني وطنهم بعدم التعرض لهؤلاء العاملين ، وتحقيق الراحة لهم حتى لا تصدر منهم شكوى أو احتجاج !

إذا أردت في المقابل أن تبحث عما يفعله الدبلوماسيون المصريون في الخارج من أجل بني جلدتهم ، هالك موقفهم وسلوكهم ، وإن كنا نستثني أقلية ضئيلة من أولاد الناس ، فإن الأغلبية الساحقة لا يعنيها أمر المصريين ولا مشكلاتهم . إن الذي يعنيهم هو أمر التسوّق ، وتوفير أكبر قدر من العملة الصعبة ، وإرضاء أهل البلد الذي يمثلون مصر لديه حتى يرضوا عنهم ، ويكتبوا إلى الخارجية المصرية للتمديد لهم ، والاستمرار في مهمتهم الدبلوماسية !

لقد رأيت بنفسي من يهرول وراء المسئولين في بعض البلاد العربية في بعض المناسبات بما لا يتفق ووقار المنصب وأهمية البلد الذي يمثله ويتكون اسمه من ثلاثة حروف أولها ميم وآخرها راء ووسطها صاد .. وللأسف فقد انتقل المذكور إلى القاهرة ليكون مساعدا لوزير

الخارجية بعد التمديد له طبعا ، حتى أحيل على التقاعد ، وصار خبيرا في الفضائيات ويتحدث في الأحداث الجارية والواقفة !!

لن أتكلم عن اهتمام بعضهم بكتابة التقارير الأمنية عن العاملين في الخارج ، وخاصة من يعملون في المجالات الفكرية والثقافية والتعليمية ، وإرسالها إلى القاهرة ، ورحم الله بعض من عرفت من خيرة علمائنا الذين ألغيت عقودهم وعادوا إلى الوطن التعيس في خلال أربع وعشرين ساعة ، وسألنا عن الأسباب فلم يعطنا أحد إجابة شافية ، ولكن الدلائل كانت تشير إلى هذه التقارير اللعينة !!!

إن السفارات والقنصليات المصرية في الخارج ، ترى أن مهمتها تهيئة الزيارات الرسمية للمسئولين وتوفير سبل الراحة لهم من أجل الاستمرار في بعثاتهم ، أما المواطنون الغلابة الذين يكدحون من أجل دراهم قليلة ، فهؤلاء غير مرغوب فيهم وفي حل مشكلاتهم ، ولعلنا نذكر ذلك السفير الذي أغلق بالسلاسل بوابة السفارة في بغداد أيام كان العراق يرسل النعوش الطائرة إلى مطار القاهرة دون أن يدرى أحد ما يجرى للمصريين هناك مما اضطر رئيس الدولة إلى استدعائه وإعفائه من منصبه!

هل العيب في أهل الخارج أم في الحكومة المصرية أم الشعب المصري ؟

أرى العيب في الشعب المصري ، فقد سمح لنفسه أن يكون عبدا لحكامه ، ورضي لنفسه الدنية ،وصفق لجلاديه ، بل دافع عنهم ، وهاهم كتاب لاظوغلى على سبيل المثال ، يقدمون وصلات ردح وهجاء لمن يتكلمون عن التعذيب الذي يفضى إلى الموت ، ويرون أن في ذلك إهدارا لهيبة الشرطة ، ويفضلون هذه الهيبة على إهدار حياة الناس في الأقسام والمعتقلات ..

لقد صار الإنسان المصري رخيصا بفعل يده ، وليس بفعل الآخرين ، صحيح أنه تعرض للقهر سنوات طويلة ، وعومل بوحشية غير مسبوقة في التاريخ ، وهو الشعب الوحيد في العالم الذي تحكمه الطوارئ أكثر من نصف قرن ،ويعيش التمييز العنصري والطبقي في أبشع صوره وخاصة في العقود الأخيرة ، ولكن هذا لا يعفيه من المقاومة ، التي تقوم على الرفض لعبادة الفراعنة من دون الله ، والفرعون يبدأ من رئيس العمل والمدير حتى الخفير والوزير، والرفض للنفاق الرخيص ، والرفض للفساد ، والرفض لشهادة الزور في الانتخابات والاستفتاءات ، والرفض لمقولة : من يتزوج أمنا نقول له يا أبتاه ..

وحتى ذلك الحين نقول : لم لا يعذب المصريون في الخارج أيضا ؟

ولا حول ولا قوة إ لا بالله العلى العظيم !

***

فخامة الرئيس حسن شحاتة !..

صار حسن شحاتة ملك الملاعب بلا منازع، أو هو رئيس جمهورية اللعب بامتياز، فقد توجه الشعب المصري البائس رئيسا إلى أجل غير مسمى في هذه الجمهورية السعيدة التي يحظى مواطنوها بالاحترام والتقدير وملايين الجنيهات بدءا من حراس المرمى حتى حاملي الرايات والصفارات، وأصحاب الحناجر الزاعقة في التعليق على المباريات !

حسن شحاتة مدرب المنتخب القومي نال شعبية غير مسبوقة، وصار أكثر شهرة لدى الجماهير الغفيرة التي طلقت السياسة بالثلاثة، وانغمست في متابعة الكرة الساحرة؛ وهى تتحرك في اتجاه الشمال أو اتجاه الجنوب، وتخفق قلوبهم كلما اقتربت من شباك المرمى في اللقاءات المحلية أو الدولية.. طمعا في تسديد هدف أو خوفا من تسديده!

وقد عرفت السلطة السياسية كيف تستغل لعبة كرة القدم استغلالا جيدا، فهي على يقين أن الناس قد كرهوا أنفسهم بسبب ما يعانونه من متاعب في حياتهم اليومية والإنسانية، ومن شظف العيش وقسوة الواقع، ومن إخفاق ذريع للسلطة على مدى نصف قرن أو يزيد في إدارة شئون البلاد والعباد، و قد عرفت أن الكرة الساحرة خير من يلهيهم عن واقعهم ويغيبهم عن حياتهم، وينسيهم العناء والألم، فجعلت لها " جمهورية " واسعة الأركان تشمل أرض مصر كلها، ومن المفارقات أن هذه "الجمهورية " تحظى بديمقراطية غير مسبوقة، أو هي تعيش أزهى عصور الديمقراطية بحق، فمجالس إدارات الأندية والمنتخب تتم في شفافية كاملة، ولايمكن إحداث تزوير فيها، ولادفع مبالغ للناخبين، وتقوم الشرطة بالحراسة وتحقيق الأمن كما ينبغي، ولا تستخدم الغازات المسيلة للدموع، ولا تمنع المصوتين من الوصول إلى اللجان ولا تطلق عليهم الرصاص الحي أو المطاطي، ويقبل المرشحون بالنتائج أيا كانت، ويتعرض المسئولون المنتخبون لانتقادات عنيفة في الصحف، وتتم محاسبتهم على ما ينفقونه، وتحظى جمهورية اللعب في كل الأحوال بدعم مالي كبير، وسيولة نقدية في كل الأوقات، ويكفي أن السلطة السياسية – وفقا

لبعض الروايات – دبرت خمسين مليونا من الجنيهات على نحو عاجل، تم صرفها فورا لمكافأة اللاعبين في نهائي كأس الأمم الإفريقية مؤخرا، ومعهم الإداريون وأطقم التحكيم، وكل من أسهم ولو بنصيب ضئيل في تحقيق النصر التاريخي(!)على ساحل العاج، تلك الدولة الإفريقية

التي تحررت بمعرفة مصر في عهد عبد جمهورية اللعب برئاسة فخامة الرئيس حسن أدري لذلك سببا اللهم إلا إذا كانت متأثرة الإسلام موقفا غريبا، فتجعل حورس مثلا رمزا ذاته، وتعلى من شأن آمون ونفرتيتي، وإيزيس خوفو وخفرع ومنقر ع، ولا تشير إلى انتمائها جمهورية حسن شحاتة أعلنت عن نفسها و" الفرعنة " وصمة عارفي جبين الإنسانية، وقد

الناصر ! شحاتة، تنتمي حضاريا إلى " الفراعنة " " ولا بجمهورية عموم مصر العربية التي تقف من لشركة الطيران الوطنية، وتسمى مجلتها بالاسم وأوزوريس، وتقدم نفسها للسياح بأنها وريث الإسلامي بكلمة أو إشارة .. جمهورية فرعونية دون أن تعلم أن " الفرعونية " وصف القرآن الكريم فرعون والفراعنة(أي قوم فرعون من جنوده وأنصاره وكهنته وحاشيته، وليس الشعب المصري)بأوصاف لا تسر، هناك عشرات لآيات التي تصف فرعون وقومه بأوصاف تجعل الانتماء للفرعنة عارا يجب الهروب منه:"إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا "، "انه كان من المفسدين " ، " وفرعون ذي الأوتاد ، الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد " " انه كان عاليا من المسرفين "... أما قوم فرعون فقد وصفهم الحق سبحانه في ثلاث آيات بأنهم كانوا قوما فاسقين أو قوم سوء فاسقين.. هذا هو الميراث الذي تفخر به جمهورية حسن شحاتة، وهو ميراث مليء بالظلم والفسق والسوء والطغيان.. فأي انتماء يريدوننا أن نلحق به ؟ إن جمهورية الفراعنة التي تصرف خمسين مليونا لمجموعة اللاعبين والمحظوظين، وفي الوقت نفسه تضطر لسن قانون أو تشريع من أجل صرف ثلاثة ملايين لألف شهيد من غرقى العبارة السلام ٩٨، لهى جمهورية ظالمة، عريقة الظلم، خاصة أنها لم تتحرك لسن هذا التشريع إلا بعد صراخ الأمة في صحفها غير الحكومية ومنتدياتها الشعبية لمحاولة التغطية علي الفجيعة القومية التي تناساها الإعلام الفرعوني والصحافة الفرعونية والاحتفالات أو المهارج الفرعونية ! هنيئا لفخامة الرئيس حسن شحاتة الذي حظي بثقة الجماهير الفرعونية.. وتسقط الفرعونية إلى الأبد!!

***

محنة العطش .. ونظرية المؤامرة !

تبيع الحكومة المصرية كل شئ فى مصر إرضاء للسادة اصحاب صندوق النقد الدولى ، وتشجيعاً للسادة رجال القروض الذين يقومون بعمل مشروعات هامشية وثانوية وغير مفيدة للشعب ، ثم يهربون إلى الخارج بمعظم ما أخذوه ونهبوه .. أو يهيمنون على المشروعات الأساسية والأولية التي يحتاجها الناس ، فيحتكرونها ، ويبيعونها بأسعار فوق طاقة العامة ، ويحصدون من ورائها أرباحاً فاحشة حراماً تذهب مع غيرها إلى بنوك الغرب الاستعمارى معبود السلطة وسيّدها المقدس !

الشىء الذى لم يبيعوه حتى الآن هو ماء النيل الذى لوّثه رجال القروض وصبيانهم ، ولكنهم أعلنوا مؤخراً عن بيعه للشرب والرى باسم حق الانتفاع ؛ من خلال أسعار لا يعلم إلا الله إلى أى مدى ستصل ، أما الشىء الثانى الذى لم يبيعوه حتى الآن فهو أبواق الدعاية (صحافة ، إذاعة ، تلفزة ، هيئة استعلامات ، وزارة ثقافة ، أحزاب بير سلم ... إلخ) . وأعتقد أن هذه الأبواق مع ما تستنزفه من مليارات الشعب المقهور ، لن تُباع ولن تمسسها يد بسوء ، حتى لو كانت خاسرة بالثلث ، ويقبض رؤساؤها ملايين الجنيهات شهرياً ، فهم على كل حال يُدافعون عن النظام البوليسى الفاشى ، ولو كان دفاعاً متهافتاً ، من عينة : طشّة الملوخية ، ولحم البعرور ، وتبولة لبنان ، فضلاً عن أزهى عصور الديمقراطية !

محنة العطش التى ظهرت معالمها وأعراضها مؤخراً بعد قيام " أهل البرلس " بقطع الطريق الدولى واحتجاز المسافرين قرابة نصف يوم ، ونقلت أجهزة الإعلام العالمية صراع الجراكن والجرادل والصفائح بحثاً عن مياه الشرب ، بدلاً من مياه المصارف والمجارى والمستنقعات الآسنة !لم تحرك نخوة المتسلطين على البلاد والعباد كي يجدوا حلا كريما لمواطنيهم المفترضين ، أو رعاياهم المفروضين .. وللأسف كان تفسير بعض المسئولين للماساة التى أدمت قلوب الشعب كله بأن محنة العطش مجرد " مؤامرة " !

أية مؤامرة يامن تخرّجت من مصانع المؤامرات والتلفيقات وأجهزة التصنت والتلصص على عباد الله الذين يرفضون الاستبداد والفساد والقهر والكبت ومصادرة الحريات وكرامة الإنسان المصرى ؟

أية مؤامرة يا خبير المؤامرات ؟ ولماذا سمحت لهذه المؤامرة أن تحدث وتدفع آلاف البشر إلى قطع الطريق الدولى ، ليشربوا قدحاً من الماء النظيف مثل بقية خلق الله فى الصحراوات التى لا يوجد بها نيل ولا أمطار ولا آبار ؟

إن خبير المؤامرات الذى كان منوطا به – لإثبات ولائه وإخلاصه – تقديم القضايا الملفقة التى يتهم أفرادها بالتهمة التقليدية " قلب نظام الدولة " .. عن طريق مجموعة أو مجموعات من الشباب البسيط لا يملكون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، اللهم إلا الاحتجاج والغضب ، والاعتصام بالدين الحنيف في قلب العواصف التي يصنعها الاستبداد والقهر . عل يمكن لمثل هؤلاء أن يقلبوا نظاماً مدجّجاً بمئات الألوف من أفراد الدفاع والأمن وأحدث أجهزة القمع والسيطرة ؟

والسؤال هو : ماذا يقصد المتآمرون بتعطيش الناس فى محافظة خبير المؤامرات ، أو فى بقية أرجاء مصر ؟ وما طبيعة هذا التعطيش ؟ هل شربوا الماء النظيف وخزّنوه فى بطونهم وأمعائهم حتى لا يجرى ولا يتحرك فى شبكة المياه المتهالكة ومواسيرها التالفة وأحواضها الفاسدة ؟

لا أدرى كيف يخزن المتآمرون المياه النظيفة ويمنعونها عن الناس فى ظل " خبرة أمنية طويلة يتمتع بها خبير المؤامرات العريق ، الذى يعرف دبّة النملة فى محافظته وخارجها ، عن طريق عيونه المادية والبشرية ؟

من المؤكد أن خبير المؤامرات – إذا كان أمر المؤامرة صحيحا – لم يصرح بكل مالديه عن المؤامرات التى تسبّبت فى محنة العطش التى سارت بذكرها الركبان .. وواضح أن لديه أسراراً لا نعرفها وأعتقد أن من حق الشعب أن يعرفها ، فربما تكون متعلقة بالأمن القومى، أو يكون هناك تدخل من دول أجنبية معادية لقتل الشعب المصرى وسحقه عطشاً ، بدلا من استخدام القنابل النووية أو الكيماوية أو العنقودية أو الفوسفورية أو الذكية !

لاشك أن خبير المؤامرات كان يطمح إلى منصب وزارى رشحته له التكهنات الصحفية عند التعديلات الوزارية السابقة ، ولكنه لم يصبه الدور .. فهل هذا هو سبب إصراره على وجود مؤامرة وراء تعطيش الأهالى فى محافظته ؟

إن السلطة البوليسية الفاشية التى تهدر أموال الشعب البائس فى الإنفاق على الأبواق المأجورة ، والترويج لحملات منع ختان الإناث ومؤتمرات المرأة التى يوحى بها الغرب الصليبى الاستعمارى ، وإقراض رجال النصب والنهب والفساد والإفساد .. تستطيع أن تطهّر النيل من التلوث الذى يصنعه الفاسدون المفسدون ، وتستطيع أن تغير شبكات المياه المتهالكة والمواسير التالفة والأحواض غير الصالحة .. وتستطيع أن تترفق فى ثمن الفواتير التى يدفعها المواطن المقهور ، ويستمتع بعائدها ؛ أساطين الفساد فى شركات المياه ، ممن يحتمون بالحيتان الكبيرة ، لدرجة أن أي رئيس شركة مياه في إحدى المحافظات يقبض آخر كل شهر – كما يُقال – ربع مليون جنيه ، بل إن العامل العادى فى أى شركة مياه ، صار مرتبه وحوافزه ، يفوق مرتب أستاذ الجامعة الذى يُنفق على مظهره وبحوثه وأسرته ! بل إن مكافأة نهاية الخدمة لهذا العامل تفوق مكافأة أى أستاذ جامعى قضى سنوات عمره فى البحث والدرس ، حتى ضاع بصره بين الأوراق والمخطوطات والمعامل وشبكة المعلومات (الإنترنت) !

الدولة التى تهتم بمواطنيها فعلا – وليس قولا أودعاية – تستطيع أن تفعل الكثير حين ترى أن وفاة طفلة اسمها بدور بسب جرعة بنج زائدة أثناء عملية ختان ، أمراً ثانوياً وهامشياً ، بجوار موت الآلاف يوميا بسبب المياه الملوثة المخلوطة بمياه الصرف ، أو العطش الذى يُهلك الزرع والنسل ، ويجعل " الجركن " عنوان المرحلة ، أقصد : أزهى عصور الديمقراطية !

واضح أن العالم كله باستثناء " زيمبابوى " ينطلق إلى الأمام . أما مصر الغالية ، فقدرها أن تبقى فى غرفة الإنعاش ، لا تموت ولا تحيا . تظلّ معلّقة برقاب الفاسدين المفسدين ، ينهبونها بلا هوادة ، ويستذلونها بلا رحمة ، ولا يترددون فى استخدام كل ماهو معاد للإنسانية والكرامة والأخلاق والعقائد ضد وجودها ومستقبلها .. وويل لمن يجأر بالشكوى أو يُعبّر عن الغضب ، طالما كانت هذه الشكوى أو ذلك الغضب مؤثراً على " الطبقة المقدسة " التى تسيّر البلاد وفق هواها وإرادتها ومشيئتها ..

وبعدئذ فعلى كل من يعترض ، أن يواجه بأنه متآمر أو شريك فى المؤامرة ، وأنه عميل للقاعدة وبن لادن والقمصان الحمر والزرق والتوربينى في طنطا ، ومنظمات الإرهاب الدولية بدءًا من اليابان حتى الولايات المتحدة ... يستوى فى ذلك المطالبة بالحرية والمطالبة بكوب الماء النظيف .وإنا لله وإنا إليه راجعون !

***

حقا ... إنـه أزهي عصور الصحافة!

واضـح أن الأمور أخذت طريقها نحو مزيد من التصعيد السافر ضد الحريات العامة ، وفـي مقدمتها حريـة الصحافة ، وذلك بحبس مجموعـة من الصحفيين بلـغ عددهم السبعة ، بانضمام رئيس تحرير الوفد واثنين من صحفييها، إلي من سبق الحكم بحبسهم وهم أربعة من رؤساء تحرير صحف خاصة هي : الدستور وصوت الأمة و الكرامة و الفجر.

ويبدو لي أن القوي السياسية لم تلتفت جيدا إلي الخطوات التدريجية التي اتخذتها السلطة لتقنن الاستبداد السافر ، وتحرم الشعب من المشاركة في تقرير مصيره واتخاذ القرار في القضايا التي تعالج حاضره وتصنع مستقبله .

وكـان مـا سـمي بـالحراك السياسـي بـين عـامي ٢٠٠٤ و٢٠٠٦ م علامـة علـي سـعي السلطة المستمر لوضـع الحريات العامـة داخل زنزانـة بوليسية فاشية لا تعرف لغة الحوار ولا تفهم منطق التعددية ..

كانت تمثيليـة المـادة ٧٦ من الدستور متقنـة للغايـة ، وظن النـاس أن الأمـر جد ولـيس تسلية يراد منها إلهاء الناس عن واقع شرس ضـاق بهم وضـاقوا بـه ، وكان تعديل هذه المادة من أعجب ما عرفه العالم حيث صيغت في نحو ثلاث صفحات فحققت بذلك رقما قياسيا في دسـاتير الـدنيا بوصـفها أطـول مـادة فـي كـل الدسـاتير ، وجـاء فحواهـا مخالفـا لكـل التوقعـات الحالمة بانفراج سياسي حقيقي يتيح للقوي الحية أن تعبر عن نفسها وتشارك في بنـاء الـوطن ، فقد صُممت بحيث يصـير مـن الصـعب "ترشـيح" – مجـرد ترشـيح – مـن لـم تـرض عنـه السلطة البوليسية الفاشية ويكون طوع بنانها .. مع الإفادة سلفا بمن سيكون الفارس المحظوظ .

وفـي انتخابـات ٢٠٠٥ م التشـريعية شـهد النـاس "تراجيـديا" مؤلمـة ومحزنـة حيـث تـم الاعتداء علـي القضـاة ، ومنـع النـاخبين مـن الوصـول إلـي لجـان التصـويت ، وإعـلان نتـائج

مزورة في الغالب .. وكان الحصاد أربعة عشر قتيلا ومئات الجرحي سقطوا برصاص النظام .

وفي خطوة مباغتة وفاجعة تم تأجيل انتخابات المجالس المحلية حتي ينتهي النظام من إعداد تعديلاته الدستورية التي تنهي وجود القضاة الحقيقي وإشرافهم علي الصناديق الانتخابية ، وقد جاءت التعديلات لتحرم القوي الحية من المشاركة في العمل السياسي تماما حيث يتم تزوير الانتخابات علنا ومباشرة ، يساعد علي ذلك انصراف الجمهور عن الإدلاء بصوته ثقة منه بعدم جدوي ذهابه وتصويته لمن يختار ، فقد أخذت السلطة علي نفسها واجب التصويت لمن تريد هي ولمن تختار هي .

وقد ترافق مع هذا الحراك السياسي الملتبس ، بدء الضربات للصحافة وتكرار تجربة إغلاق صحيفة الشعب الناطقة بلسان حزب العمل وحبس رئيس تحريرها واثنين من زملائه وتغريم آخر عشرين ألف جنيه ، وتم القبض عليه في يوم صدور الحكم لدفع الغرامة !

أقول تكررت التجربة بإغلاق جريدة آفاق عربية وتشريد أكثر من سبعين صحفيا لم يتقاضوا مرتباتهم منذ عام ونصف عام ، ثم بدأت المناوشات للتحقيق مع بعض الصحفيين الأحرار ، وتحويل الأقلام الراسخة في الدفاع عن حقوق الإنسان المصري إلي أقلام مرتعشة ، تغمغم ولا تفصح، وتدمدم ولا توضح، كي يطمئن دهاقنة الفساد إلي استمرارهم في النهب والتخريب والاحتكار وإفساد حياة الوطن بالتعليم السطحي والإعلام الكذاب، والثقافة المزيفة الخانعة .

ربما كان الحكم بحبس رئيس تحرير الوفد واثنين من زملائه القشة التي قصمت ظهر البعير وكشفت لكل من كان يعلق أملا علي ما يسمي هامش الحرية في تغيير الأحوال إلي ما هو أفضل وأحسن . لقد انكشفت الخدعة عن سراب كبير يقوم علي تقديم صورة ديكورية تخاطب العالم الخارجي وحده ، وتقوم علي أربعة وعشرين حزبا لا يمكن لأحد أن يعرف أسماءها كاملة ، ولا يمكن لأي حزب منها أن يعقد اجتماعا جماهيريا أو ينظم مظاهرة عامة ، بل إن النظام لا يجد غضاضة في الإيقاع بين أعضاء كل حزب يخشي من نموه وتطوره في اتجاه يهدد وجوده السياسي !

إن دعم النظام للصحافة القومية في مواجهة الصحف الحزبية والمستقلة ينبع من رغبته المستبدة في تهميش الأخيرة وتحويلها إلي مجرد أبواق تابعة له تسبح بحمده وتشيد بأفضاله ، وهو أمر – فيما أتصور – لن يتحقق بسهولة اللهم إلا إذا استمر في هجمته الإرهابية بتجنيد أتباعه لرفع مزيد من القضايا علي هذه الصحف وإدخال صحفييها السجون ، وحينئذ تتوقف تلقائيا ، ويبدو في الوقت نفسه بريئا من دمها !

لقد آن الأوان أن تقف نقابة الصحفيين والنقابات المهنية والقوي الحية وقفة حازمة ضد الاستبداد الغشوم للجمه وفرض التراجع عليه، و أعتقد أن كتاب لاظوغلي ومثقفي الحظيرة وكتاب البلاط يجب ألا يؤثروا علي حركة أحرار الأمة في سعيها لمقاومة الاستبداد واستعادة مصر من قبضة الفاسدين المفسدين .

ويا أيها المحامون الشرفاء : قوموا بدوركم ضد أبواق السلطة ، الذين يسيئون إلي الشعب كله والأمة كلها والقيم الشريفة كلها ... والله ناصركم ومؤيدكم.

***

أخطر من جلد الصحفيين!

آثرت الانتظار حتى ينجلى غبار ما سمّى فتوى جلد الصحفيين التى أثارت جدلاً كبيراً وخلطاً أكبر ، واستغلها بعض خصوم الإسلام للتنديد بما يُسمى " الدولة الدينية " التى يُؤيدها النظام الحاكم ويُشجعها !

وهو أمر لو تعلمون عجيب . فما كان النظام الحاكم يوماً موالياً للإسلام وتشريعاته ، وما كان الإسلام يوماً منشئاً لدولة دينية فيها كهنوت وغفران وحرمان .

ويجب أن نعلم أن المسلم يجب أن يؤمن بما نزل به الوحى إيماناً مطلقاً ، حتى لو أزعج الغزاة الصليبيين الاستعمارين أو الغزاة النازيين اليهود . وحين يقرر الحق سبحانه وتعالى أن حدّ قذف المحصنات المؤمنات الغافلات ثمانيين جلدة ، فيجب أن نقول : سمعنا واطعنا . ولا نقول : " إنها دولة دينية " تُعيدنا إلى القرون الوسطى المظلمة فى أوربا . فالمرأة المحصنة البرئية يجب أن تظل سمعتها فوق التشويه والتجريح والادعاء الباطل ، والحدّ لردع من تُسوّل له نفسه العدوان على الأبرياء .

والخطأ في الفتوى المذكورة هو قياس حدّ القذف على الصحافة والفكر ، واستغلاله لتصفية حسابات سياسية أو تنافسية ، وهو من التأويل الباطل الذى يدخل تحت مسمى " التدليس " حيث يُجيز للسلطة أن تأخذ بتلابيب أصحاب القلم الحرّ ، لإسكاتهم وقطع ألسنتهم ، وترك الفساد يخرج لسانه للشعب المظلوم فى وقاحة غير مسبوقة .

ويبدو أن فريقاً من خصوم الإسلام ، وجدوها فرصة مناسبة للتركيز على مسألة جلد الصحفيين ، وهم الذين سبقوا أن وصفوا من تحدث عنه أو أشار إليه ، بالشيخ المستنير ، لأنه أباح ربا البنوك ، واستقبل الغزاة الأنجاس فى رحاب الجامع العريق ، وأقر الصهيونى

المتوحش على خلع حجاب المسلمات فى فرنسا بقوة القانون ، وذهب إلى فلسطين المحتلة بتأشيرة صهيونية و ....

ونسى هؤلاء وغيرهم ، أن ما جرى للأزهر المؤسسة والتعليم والمستقبل ، يمثل كارثة من أخطر الكوارث التى تفوق كارثة جلد الصحفيين وأصحاب الفكر . فالمعهد العريق أُصيب بنكسة خطيرة عقب تطويره بالقانون ١٠٣ لسنة ١٩٦١ ، حيث فرّ منه الطلاب بسبب ضخامة المقررات التى تجمع بين مقررات التعليم العام ومقررات الأزهر السائدة .. وكاد يفرغ من الطلاب تماماً ، مما اضطر بعض المسئولين إلى قبول نفايات الشهادة الإعدادية والشهادة الابتدائية من طلاب أميّين لا يحفظون القرآن الكريم الذى هو أساس التعليم فى المؤسسة العلمية العريقة ، ولا يملكون حداً أدنى من الوعى يؤهلهم للدراسة الحقيقية التى تخرجهم أئمة وخطباء ومعلمين ، وكانت النتيجة على عينك يا تاجر ، حيث صار " الضعف المشين " سمة عامة ، تحكم خريج الأزهر الذى لا يُحسن قراءة ولا نطقاً ولا فهما فى الغالب الأعم ، واشتكى الناس من الواقفين على المنابر والمتقدمين لإمامة الناس ، ومن صاروا معلمين لأبنائهم فى معاهد الأزهر المعمور !

وعندما أسفرت المؤامرة الصليبية الصهيونية ، وكشفت عن وجهها البشع لتدمير الأزهر تحت مسمّى تغيير الخطاب الدينى (الإسلامى وحده) ، تطوّع علماء السلطة وفقهاء الشرطة بتقديم خدماتهم مقابل فتات لا يغنى ولا يسمن ، مثلما فعلوا بالتطوّع لتقديم حيثيات جلد الصحفيين وإسكاتهم وفقاً لقياسهم الخاطئ .

لقد بدأت الكارثة بتقليص سنوات الدراسة فى الإعدادى والثانوى حتى صارت سنوات الأزهر فى التعليم مثل سنوات التعليم العام ، ثلاث فى الإعدادى وثلاث فى الثانوى .

وبعد أن كان الطالب الأزهرى يدخل المرحلة الإعدادية حافظاً للقرآن ، اكتفى القوم بحفظ أجزاء منه يمتحن فيها الطلاب امتحاناً صورياً ، وكأنه لم يحفظ ، ويعللون لذلك بأنه سيتم حفظه مع تخرجه إن شاء الله ، ولكن النتيجة على أرض الواقع تقول شيئاً آخر يعرفه كل من له أدنى صلة بطلاب الأزهر ومستواهم التحصيلى .

ثم تدفقت التنازلات التى قلّصت المناهج والمقررات الأزهرية فى علوم اللغة والشريعة كما وكيفا ، فتم دمج مقررات مع بعضها ، وإلغاء كتب عميقة وإحلال كتب سطحية يؤلفها بعض المشايخ " الموظفين " من أجل مكافآتها السخية . واقترب الأزهر من التعليم العام فى المناهج والمقررات مما جعل التحويل إلى الأزهر ومنه أمراً سهلاً وهيناً لتحقيق غايات الطلاب الفاشلين هنا وهناك .

فى الوقت ذاته كانت تجرى عملية تضييق واسعة النطاق على مكاتب تحفيظ القرآن ، وحرمان المحفظين من مكافآتهم ، صحيح أنه تعرض كل عام على شاشة التلفزة وبمناسبة

ليلة القدر عملية توزيع جوائز ضخمة على الفائزين فى مسابقة حفظ القرآن – وأغلبهم من الدول الإسلامية – ولكن التحفيظ داخل الوطن البائس متروك أمره لأهل الخير فى الغالب ؛ لأن القوم يريدون التوفير فى ميزانية الأزهر المعمور ، وردّ الوفر إلى خزينة الدولة ، والحصول على نسبة منه بحكم القانون ، وهو ما أدى إلى تقليص ميزانية الأزهر بصورة غير مسبوقة ، جعلت بعض الغيورين فى المجلس النيابى يطالبون بزيادتها ، دون أن يدركوا السرّ الذى يحتفظ به بعض طلاب المال !

ثم كانت الكارثة الأكبر ، وهى إلغاء فقه المذاهب من أجل توزيع كتاب اسمه " الفقه الميسر " يُقدم صورة أولية للفقه الذى يفترض أن يدرسه متخصصون . وبالتالى فإن صاحبه يحصل على مكافأة ضخمة بعد أن يُلقى بفقه المالكية والشافعية والحنفية والحنابلة فى عالم النسيان ، ويخرج بعض " المطيباتية " من فقهاء النظام ليقولوا : من يُريد الاطلاع على فقه المذاهب فليرجع إلى كتبها !!

إذاً ما الفرق بين الأزهر والتعليم العام ؟ بين التخصص والدراسة العامة ؟

القوم لا يعنيهم ذلك ، ربما يعنيهم دون أن ندرى ، ولكن الأمر فى كل الأحوال ، يُهيئ لما قيل من قبل عن اعتزام السلطة إلغاء الأزهر وضمه إلى وزارة التربية والتعليم ، حتى لا يكون هناك تعليم إسلامى من الأساس ، وتتكرر التجربة التونسية التى نفذها الشيوعى السابق المتأمرك الحالى المدعو " العفيف الأخضر " حين كان وزيراً للتعليم العالى التونسى ، وألغى جامعة الزيتونة العريقة التى كانت معنية بدراسة العلوم الشرعية واللغة العربية ؛ إرضاء للسادة الصليبيين الاستعماريين الذين يُزعجهم الإسلام ويعملون على استئصاله بكل الوسائل والسبل .

الجريمة الأخطر وهى تدمير الأزهر التاريخ والمستقبل وحصن الإسلام ، لا يلتفت إليها السادة المنزعجون من الدعوة إلى جلد الصحفيين ، ولكنهم لو فقهوا لعرفوا أن جلد الصحفيين مجرد عرض لمرض سيفتك بالأمة كلها وليس بالصحفيين وحدهم . والله غالب على أمره .

***

أم حسنين ..!

أم حسنين امرأة عادية .. من عامة النساء المصريات . حملت عبء أسرة ضخمة وقامت بواجبها خير قيام .. وأخيراً ودّعتنا قبل أيام – (٢٠٠٧/٩/٤م) – إلى العالم الآخر بعد عمر يناهز التسعين عاماً !

هى امرأة مجهولة ، لا يعرفها المجلس الأعلى للمرأة ، ولا المجالس الأخرى التى تدعى دفاعاً عن المرأة وحقوقها ومساواتها بالرجال ، ورفض الختان ، والميراث وفقاً للشريعة الإسلامية ، وتعدّد الزوجات .. ولكنها أثبتت بفطرتها البسيطة ، أنها أذكى وأفضل وأعظم من كل المجالس العليا والسفلى التى تتشدق باسم المرأة ومصير المرأة ..

لقد أنجبت أربعة عشر رجلاً وامرأة ، من ضمنهم ولد غير شقيق كان يعدّها أمه الحقيقية ، وكان ولاؤه لها قبل أمه الأصلية ، فقد ربّته مع أخوته ورعته وزوّجته وفرحت بأبنائه وأحفاده أيضاً ..

لقد حملت عبء الحياة العائلية مبكراً حين فقدت زوجها الرجل البسيط الذى كان متعهد صحف فى باب اللوق ، وكان الحاج مدبولى – الناشر المعروف الآن – من ضمن من عملوا معه ، وتعلموا منه ، حتى صار علامة لدى مثقفى الحظيرة وخارج الحظيرة ، فى مصر والعالم العربى على السواء .

إنها أم الأستاذ " حسنين كروم " – الصحفى المعروف ، ومدير مكتب جريدة " القدس العربى " ، وأم زوجتى أيضاً ، وجدة أبنائى وبنتى ، وقد تركت من الأحفاد وأبنائهم ما قرّ عينها وأسعدها فى حياتها ، مع كل ما عانته من متاعب الدنيا ومصاعبها وأحزانها .

ولعل القارئ يسألنى ، لماذا تشغلنا بأمر هذه المرأة البسيطة ؟ ألم يكن أجدر بك أن تكتب لنا فى موضوع عام يهمّنا ويشغلنا فى غمرة الحوادث التى لا تنجلى ، ومعمعة الهموم التى لا تهدأ ولا تتوقف ؟

وأقول للقارئ الكريم ، إننى أتناول موضوعاً عاماً من خلال هذه السيدة البسيطة التى تكشف عن معدن الشعب المصرى وأصالته فى مواجهة المحن والهموم ..

لقد كان أبناؤها ممن انشغلوا بهموم الوطن وقضاياه ، بحكم اقترابهم من القراءة ، وتعاملهم مع الكلمة المكتوبة أو المقروءة ، وكان عمهم الأكبر " إبراهيم كروم " – أحد فتوات بولاق – الذين لعبوا دوراً سياسيّاً فى أواخر العهد الملكى وأوائل عهد العسكر .. عرض عليه الشهيد حسن البنا ، الانضمام إلى الإخوان المسلمين ، فسأله عن الإسلام و " الفتونة " ، فأجابه الشهيد بالإيجاب ، فطوّح عصاه وألقى بها على الأرض قائلاً : اللهم صلّ على أجدع نبى ! وصار فتوة بولاق المشهور ، واحداً من أهم أتباع حسن البنا ، وحين قامت حركة الجيش عام ١٩٥٢م ، كان عنصراً مهمّاً من عناصر دعمهما على النحو الذى تكلم عنه بعض الباحثين .

أبناء أم حسنين ، كانوا على الدرب ذاته برؤى متغايرة . حسنين ومحمد ، ناصريان حتى النخاع ، وفُصل الأول من عمله الصحفى قبل حرب رمضان بسبب انتمائه ، نصر كان عضواً فى جماعة التبليغ التى رعاها الشيخ " إبراهيم عزت " – رحمه الله – ودفعت به الأقدار إلى دخول المعتقل ليقضى سبعة عشر عاماً ، ويخرج بقايا إنسان ، بعد التعذيب والمعاناة ، ليرى أمّه قبل وفاتها باسابيع قليلة .. ومن المفارقات أن ابنه " محمد " أُلقى به فى معتقل الواحات أحد عشر عاماً وهو صبى لما يبلغ الخامسة عشرة ، فيُصاب بأمراض فتاكة ويكتب عمّه " حسنين " راجياً نقله إلى أحد معتقلات القاهرة حتى تمكن معالجته وزيارته ، ولكن لا استجابة من النظام البوليسى الفاشى ، الذى ألقى الغلام فى قعر مظلمة دون محاكمة بعد مشاجرة على أحد المقاهى فى حىّ بولاق !

الآخرون من أبناء أم حسنين عاشوا متاعب مختلفة بسبب السياسة وواقع الحياة ، وكانت الأم فى صبرها وجلدها ، مثالاً للتحمل والصلابة ، مع ما أصابها من أمراض الضغط والأعصاب وهشاشة العظام فى أواخر أيامها حتى صارت تتحرك على كرسى !

أم حسنين صورة مصغرة لمصر فى بذلها وعطائها ، دون منّ ولا أذى ، حيث يعترف بفضلها البعض ويجحده الآخر ، ولكنها فى كل الأحوال لا تنتظر من أحد جزاءً ولا شكورا ، إلا الدعوات ممن أحبّوها ، وعرفوا قدرها وقيمتها ..

ترى هل يمكن أن تعيش مصر فى ظل الغلاء المتوحش والقهر البشع والاستبداد القبيح ، لولا أمثال هذه المرأة ، التى نسيت نفسها ، وراحت تغدق كل ما تملكه من عطف وحنو ورحمة على أبنائها وأحفادها ، وهى تعايش مشكلاتهم ومتاعبهم وأحزانهم وأفراحهم ونجاحاتهم ومسرّاتهم ..

كانت تقطع المسافة من القاهرة إلى قريتى – نحو مائتى كيلو مترا – لتطمئن على ابنتها وأحفادها وتقدم المساعدة والنصح والخبرة ، وتفعل ذلك مع بقية البنات ، عدا تلك التى تزوجت فى تركيا ، ولا تستطيع الوصول إليها إلا عبر الهاتف ، أو تنتظر زيارتها .

أى أم تلك التى تهتم بأحفادها ومطالبهم ، وتسأل عنهم وتتابع أخبارهم ؟ كان ابنى " محمود " أحد الأحفاد الذين يمارسون " شقاوتهم " الزائدة عن الحدّ ، لدرجة أنه كان يوقظها من النوم لتتحدث معه وتحكى له ، ويسألها عن قصة قرابتها للقارئ الشهير الراحل " الشيخ محمود خليل الحصرى " – رحمه الله – وكانت تهدد أحياناً بالعودة إلى القاهرة إعلاناً عن غضبها منه ، ولكنها حين تسافر وتتصل هاتفياً ، يكون أول سؤال لها عن " محمود " ! وعندما كبر " محمود " وتخرّج هذا العام بعد الجامعة كان هو المفضل لديها ، وهو الذى يجلس معها ويحكى لها وتحكى له .

يتساءل الناس عن سرّ بقاء مصر دولة قائمة على الأرض – وأقول لهم : إن السرّ يكمن فى أمثال هذه المرأة الطيبة التى فقهت معنى الحياة بفطرتها البسيطة ، فأعطت بلا حدود ، وحصدت حبّاً بلا حدود ايضاً .. وأثبتت أن المرأة المصرية الحقيقية ، ليست ضمن مجالس المرأة القومية أو القطرية أو المحلية ، ولكنها موجودة فى أعماق الشعب البائس تمدّه بشريان الحياة والأمل .

رحم الله أم حسنين وجعل الجنة مثواها .

***

مصر تبكى نفسها !

في ليلة عيد الفطر بكى المصريون كما لم يبكوا من قبل . بكى المصريون أنفسهم وتعاستهم وإخفاقهم وحظهم المنكود ونصيبهم البائس ، مع أنهم يملكون ميزات كثيرة ، وإمكانات كبيرة لا يملكها غيرهم .
حين ماتت " ماما نونا " في مسلسل " يتربى في عزو " ؛ انهار المصريون ، وسحّوا الدموع مدرارا ، وتداخل البكاء بين ما هو شخصي وما هو عام .. فقد أحسّوا أنهم فقدوا كل شيء ، ولم يعد هناك ما يستحق البقاء ، بعد أن هانت مصر على بنيها ، أو معظم بنيها ، ولم يجدوا غضاضة في بيعها بثمن بخس للطامعين و الأشرار !
هل كان المصريون ينتظرون تلك اللحظة منذ زمان لينهنهوا و " يتشحتفوا " في ليلة " مفترجة " يحلو فيها الفرح والسمر والبشر والسرور ؟

لا ريب أن الواقع المصري أقوى من كل مسلسلات العالم ، فلا يكاد يمضى يوم دون حدث جلل يكشف معالم نظام متهاو آثر أن تكون ليده – بدلاً من عقله – الكلمة العليا ، فجعل من " النبوت " وسيلة " ضبط " و " ربط " فيما يتعلق ببقائه ووجوده واستمراره .. ومع أن كتّاب النظام وخدّامه لا يكفون ليل نهار عن معايرتنا نحن المصريين واتهامنا بالتخلف العقلي وعدم العقلانية ، فإن أحداً منهم لم يقل للنظام استخدم " مخك " بدلاً من " يدك " ، ثم انظر حولك كيف يتصرف العالم ، بل الجيران الأعداء الغرباء الغزاة ، كيف يستخدمون عقلهم في الإدارة والعلم والعمل والحياة .
مثلاً في الوقت الذي كانت فيه أجهزة الدعاية مشغولة بقضية تافهة حول شائعة مرض رئيس الدولة ، كان اليهود يقومون بتدمير منشأة عسكرية سورية يُقال إنها كانت بداية لمشروع نووي ، وكان وزير دفاعهم يتنزه مع جنوده على الأرض السورية ليتفقد الموقع الذي تم قصفه على أرض الواقع .. يا للعار !
ومثلاً : بينما كان النظام كله مشغولاً بحبس الصحفيين المعارضين ، وتجييش دعايته وفقهاء الشرطة ووعّاظ السلطة لتسويغ جلد المعارضين وإذلالهم ، فإن ملايين المصريين كانوا يتقاتلون أمام المخابز البلدية بحثاً عن بضعة أرغفة ، بعد أن شحّ " القمح " ، واختفى " الدقيق " ، وعاث المحتكرون الفاسدون المفسدون في الأرض ظلماً ونهبا وخرابا ..
لماذا لا تبكى مصر نفسها وعلى نفسها وعلى أحوالها ، وقد صارت في مؤخرة الأمم لا تقوم إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المسّ ، بعد أن اقترضت بالربا ، وأحلت الربا ، وتعاملت بالربا ؟
بحثت طوال شهر المسلسلات والفوازير والعوالم عن أحد العلماء أو الباحثين يظهر على شاشة التلفزة أو نسمع صوته عبر موجات الإذاعة ، ولكنى لم أعثر فيما شاهدت بأحد منهم إلا مرتين مرة في رمضان وأخرى

بعد العيد ..
الأولى كانت مع عالم جليل في الأزهر يُراجع الأعمال الأدبية والفنية التي يثور حولها جدل بسبب ما تحتويه من إساءات أو تصورات معادية للإسلام والعقيدة ، وقد استضافته مذيعة لا تقوى شوكتها هي ومن وظفها إلا على الإسلام والمسلمين ، وراحت تجلد الرجل بلسانها وتنهره وتزجره ، وهى في منزلة ابنته ، والشيخ الفاضل الذي كان يرتدى بدلة ، يُطيل حبال الصبر ويُحاول بكل طاقته أن يفرغ شحنتها العدوانية ، ولكنها كانت مصرة على إدانته بل إدانة الإسلام وقواعده ، من أجل عيون " إعلام الريادة " – رحمه الله !
في المقابل ، فقد استضافت هذه المذيعة واحدة من العوالم أو الغوازي ، وكانت تتحدث معها بكل رقة وأدب ، بل كادت تتماهى مع " الغازية " – المودرن – وهى تسألها عن فضائحها التي اشتهرت بها بين خلق الله !
وحين تقارن ما جرى للعالم الأزهري وللغازية المودرن ، فلك أن تتأكد أن مصر لم تبك " ماما نونا " ، بل كانت تبكى أجمل قيمها التي ضاعت ، وأغنى ثرواتها التي نهبت ، وأغلى ممتلكاتها التي خُرّبت .
المرة الأخرى ، كانت لقاء مع العالم المصري – الأميركي الجنسية – فاروق الباز ، أستاذ الجيولوجيا بجامعة بوسطن ، فقد ظهر على شاشة التلفزة ليحكى عن أحلامه " العلمية " لوطنه ، والفارق بين البحث العلمي هنا ، والبحث العلمي هناك ، فأثار أشجانا مزمنة ؛ وخاصة عندما اتصل به أحد
حمدت الله أن المذيعة لم تجلد فاروق الباز ولم تنهره ولم تزجره ، ربما كانت خائفة من جنسيته الأمريكية ، فالجنسية الأمريكية لها تجليات لا تخفى على أحد !..
لنا أن نتصور بعدئذ نوعية الذين اهتم بهم الإعلام الرسمي وإعلام رجال القروض الذي يُسمى تجاوزاً بالإعلام الخاص ، إنهم – كما يقول البعض – " كريمة " المجتمع الرخو الفاسد من عوالم ومهرجين وطبالين وزمارين ومثقفي حظيرة وكتاب بلاط ولاعبي كرة ومصفقين للسلطة في السراء والضراء وكذابي زفة ..
ثم لنا أن نؤكد للدنيا أن جهاز إعلام يُخصص أكثر من شهر لاستضافة تجار المسلسلات وصانعيها ، ويمنحهم من الوقت ما لا يمنحه لكبار المسئولين في الدولة ، لهو معبر خير تعبير عن نظام يتداعى ، بعد أن فقد الرشد والصواب .. وإلا بالله ، ماذا يعنى أن يستضيف هذا الإعلام على معظم قنواته وموجاته المخرجين والمؤلفين والمنتجين والممثلين .. حتى الأطفال الذين قاموا ببعض الأدوار القصيرة جاءوا بهم ، وبعضهم كان يُغالب النوم ، ليتحدثوا عن العظمة و الأستاذية والحرفنة لفلان أو علان أو ترتان ..
ثم يا للعجب ، جاءوا بمن سمّوهم نقاداً فنيين ليدلوا بآرائهم النقدية في " شر البلية " ومع أنني من المعنيين بالنقد الأدبي على مدى أكثر من أربعين عاما ، فلم أر ناقداً أدبياً يظهر على الشاشة ويتناول عملاً أدبياً حقيقياً ، ويجد حفاوة مناظرة لما يُسمى ب " النقد الفني " !
قبل ربع قرن تقريبا كانت هناك بعض البرامج الأدبية التي تتضمن نقداً ونقاداً ، ولكنها تلاشت في زمن الدولة الرخوة ، أو الدولة البالوظة ، ليبقى على سطحها المسلسلات الرديئة وأهل الفن الهابط وجوقة النفاق !
ويحق للمصريين بعدئذ أن يبكوا على أنفسهم ، وليس على ماما نونا ، في مسلسل يقول فيه واحد لآخر رآه يهتم بالدين : أنت حتصبح إرهابي؟ !!
واسلمي يا مصر

***

الضريبة العقارية وإشعال النار !

يُروى أن المُظفّر لدين الله قطز ، حين أراد الخروج لملاقاة التتار الغزاة في فلسطين وطردهم من بلاد الشام ، جهّز جيشاً ، واستشار شيخ الإسلام " العز بن عبد السلام " ليفرض ضريبة على عموم المصريين كي يدعم الجيش المجاهد في مواجهة الجيش الغازي الجرار المزوّد بالسلاح والعتاد والمال . ولكن الشيخ رفض فرض الضريبة على عموم المصريين ، قبل أن يُقدم الأمراء والكبراء ما لديهم

من مال وممتلكات وجواهر وذهب ، ولقطز أن ينزعها منهم بالقوة الجبرية ، وبعدئذ إذا احتاج إلى شيء فرضه على الناس .

نفذ قطز ما قاله الشيخ ، وخرج إلى " عين جالوت " ، وانتصر على الغزاة ، وردّهم على أعقابهم .. هكذا منهج الإسلام ، وهو منهج العدل والمساواة الذي تتبناه الدول المتحضّرة .. أما الآن ، فإن الحكومة المصرية تصر على خنق الشعب المصري وتجويعه وعصره حتى لا يبقى منه نقطة دم واحدة ، ليسعد الأمراء والكبراء والمحظوظون ، ويعيشوا حياة " ألف ليلة وليلة " على النمط الحديث ، وتأكل كلابهم أفضل مما يأكله عامة الشعب البائس التعيس .

لقد اندفعت السلطة في سلوك أحمق بإعداد مشروع قانون جديد للضريبة العقارية ، يزيد من بؤس المصريين وتعاستهم ، وامتدّ القانون المقترح ليشمل الريف المصري والفلاح البسيط .. فكل بيت يملكه فلاح أو عامل فقير سيدفع ضريبة ، وكل مستأجر لشقة أو غرفة سيدفع ضريبة ، وكل فدان أرض زراعية ستتضاعف عليه الضريبة (يُسمّونها المال) ، وكل شقة مغلقة أو مفتوحة اشتراها صاحبها بعرق جبينه وعذاب السنين في الغربة سيدفع ضريبة ، كل كادح وفقير ومدين وبائس سيدفع ضريبة المكان الذي يُؤويه أيا كان هذا المكان ، والمكان الذي يزرعه أيا كانت مساحة هذا المكان !

ويبدو أن هذه الضريبة التي تفنّن فيها " الجُباه " ستكون " القشّة " التي تقصم ظهر البعير ، وتُشعل النار في الأخضر واليابس .. وساعتها لن يكون هناك وطن ولا مواطنون ولا سلطة ! ماذا تنتظرون من شعب يتم خنقه بحماقة وغطرسة وقوة الذراع ؟

أرأيتم ما فعله شعب غزة حين حطم الجدران والأسوار ، واندفع إلى الجانب الآخر ، بعد أن ضاقت عليه السبل ، وشعر أنه لن يخسر شيئاً ؟

إن أي شعب يضيق عليه الخناق سيفعل مثل الشعب الفلسطيني ، وبقية شعوب الأرض .. ونحن نسأل الأمراء والكبراء والمحظوظين : ما معنى أن ترتفع أسعار المواد الأساسية : الدقيق ، الزيت ، السكر ، الخضروات ، الفاكهة .. (بلاش اللحوم) .. السماد ، التقاوي ، المبيدات ؟

ثم ما معنى رفع أسعار المازوت فجأة ١٠٠% مما أدى إلى ارتفاع سلع أخرى ، وتوقف صناعات تعتمد عليه ؟ لقد ارتفع سعر الطوب الأحمر ، والورق وكل السلع التي تعتمد على وقود المازوت، ثم إن مصانع الورق توقف بعضها والبعض الآخر في طريقه إلى التوقف ؟

وما معنى أن يرتفع سعر السماد خمسة أضعاف ، ولا يستطيع الفلاح أن يجد شيكارة واحدة إلا بهذا السعر

المضاعف ، بينما اللصوص يُحوّلون لوريات الأسمدة إلى جهات أخرى غير بنوك القرى وجمعياتها الزراعية ؟
ماذا يتبقى للفلاح الذي تستذلّه السلطة وهو يعرض محصوله الرئيسي : القطن أو القمح ، فلا تشتريه الحكومة إلا بعد مراوغات – يستفيد منها اللصوص الكبار – بثمن بخس لا يعادل عذابه ومرمطته في الحرث والبذر والعزق والرش والجني ؟
هل الأمراء والكبار والمحظوظون يعلمون بما يجرى للشعب عامة ، وللريف خاصة ؟
لقد رفع ملوك الحديد والأسمنت والسيراميك الذين تدعمهم السلطة الأسعار بنسبة تصل إلى ٣٠٠% مما يضاعف أرباحهم ، بينما يحصلون على الطاقة والمواد الخام بثمن تافه ، مما يترتب عليه شلل قطاع المقاولات الحكومية تقريباً ، وبطالة العمالة اليومية التي كانت تعتمد على العمل اليومي في مهمة البناء ، بعد أن سدّت في وجوهها أبواب الوظائف والمرتبات المنتظمة ، فضلاً عن توقف معظم الناس عن الاستمرار في البناء والتشييد !

كنا نتمنى أن تقوم السلطة التي تنشط في اعتقال الأبرياء من أصحاب الرأي والفكر ، وتصادر ممتلكاتهم وأموالهم ، وتقدمهم إلى محاكمات عسكرية بالمخالفة لقوانين الأرض والسماء ، أن تحاسب كبار المنحرفين في الخارج أو الداخل .. وهى بالمليارات التي تغنى عن فرض " الإتاوات " التي تسمى ضرائب عامة ، أو ضرائب عقارية ، أو ضرائب تركات ، أو ضرائب غير مباشرة على الشعب البائس الفقير !
إن الحكومة تعرف من ينهبون الشعب البائس الفقير ، وتعلم طبيعة المنهوبات التي تصل قيمتها إلى عشرات المليارات ، ويكفى مثالاً على ذلك ، ما قاله المهندس " حسب الله الكفراوي " لجريدة الوفد (٢٤/١/٢٠٠٨م) ، وهو وزير إسكان سابق ظل في الحكومة ستة عشر عاماً ، عن بيع الحزام الأخضر لمدينة ٦ أكتوبر ، ويبلغ ألف فدان . لقد رفض الرجل وهو وزير أن يبيعه مع كل الضغوط التي تعرّض لها ، ولكنه بمجرد تركه للوزارة قرأ تهنئة للوزير الجديد في الصحف ممن اشترى ألف فدان بعدئذ بتراب الفلوس . كم تساوى الألف فدان الآن ؟ لقد بيع الفدان بثمن متر واحد في ٦ أكتوبر .. وعلى من يُجيدون الجمع والطرح والضرب والقسمة أن يقولوا لنا كم يبلغ ثمن الألف فدان – المحرّم بيعها – من مليارات !
الكفراوي يُشير إلى وزير كان أبوه بائع روبابيكيا – وهذا لا يعيب البائع ولا الابن – ومنصبه السابق على الوزارة ، لا يؤهله للغنى الفاحش الذي حققه الوزير المذكور ، وأغمضت السلطة عينيها عن عشرات البلاغات التي قدمت ضده إلى أجهزة الدولة المختصة !
الكفراوي يذكر أن عدداً من الكبار وضعوا في بنوك الخارج بأسمائهم عشرات المليارات !
بعد ذلك تأتى السلطة لتمتص ما بقى من دم الفقراء والمعدمين والكادحين بالضريبة العقارية ؟
تتراءى أمامي ، وفى مسمعي الآية الكريمة " وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا " (الإسراء : ١٦) وأمرنا مترفيها أي دعوناهم إلى الاستقامة والإصلاح ، وفى قراءة أخرى " أمّرنا " بتشديد الميم وتسكين الراء ، أي جعلناهم أمراء ، والفسق هو الخروج عن الاستقامة والإصلاح .. ولا حول ولا قوة إلا بالله .

قاطعوا

الدانمركيون يعتدون على نبينا – صلى الله عليهم وسلم – فقاطعوهم برا وبحرا وجوا ، لا تبيعوا لهم ولا تشتروا منهم ، لا تركبوا طائراتهم ولا بواخرهم ، ولا تفرغوها ولا تشحنوها ، امنعوا الخدمة عن الطائرات والبواخر في المطارات والموانى ، واجعلوا بضائعهم راكدة في مصانعهم ومزارعهم .. لا تحضروا مؤتمراتهم ، ولا تشاركوهم

أنشطتهم ، ولا تستقبلوهم في بلادكم ، ولا تتعاملوا مع صحفييهم ، ولا توزعوا صحفهم في بلادكم ، ولا تقبلوا دعواتهم ، ولا تحتفلوا في سفاراتهم.. حتى يعتذروا عن الإساءة ويحاكموا المسئولين عن الصحف السبع عشرة ! فهؤلاء الصليبيون المعتدون لا يستطيعون مجرد التشكيك في المحرقة اليهودية !!!

***

سعيكم مشكور.." على جزمتنا" !

لم أكن أنوي الإشارة إلى ما يسمى بانتخابات مجلس الشورى . فمعروف سلفا ؛ أنها ليست انتخابات " ولا يحزنون " ، بل هي تمثيلية سخيفة اخترعها النظام البوليسي الفاشي ، ليجمّل وجهه القبيح أمام العالم ، وليس لاصطفاء نخبة حقيقية من ذوي الخبرة والإخلاص تؤدي دورا حقيقيا يخدم البلاد والعباد .والبسطاء الأميون في أعماق الريف يدركون جيدا أن مثل هذه المجالس ؛ لاتخدم سوى أعضائها والنظام الذي أتي بها ، وتحليل – من الحلال – كل ما يقترفه النظام من محرّمات ضد الشعب والأمة جميعا .

كنت أتمنى أن تنفق المائة مليون جنيه – وقيل ثلاثمائة مليون – المخصصة للانتخابات على مصالح الناس ، بدلا من إنفاقها على انتخابات صورية ، يعلم الناس جميعا أنها مزورة ، وأنها تتم بإرادة البوليس وإشرافه ، وليس القضاء ؛ كما يكذبون علينا صباح مساء .

عاجلني صوت المذيعة الكذابة في نشرة التاسعة مساء الأحد ٢٠٠٧/٦/١١م، وهي تجزم بصيغة قاطعة أن خمسة وثلاثين مليونا من الناخبين المصريين قد توجهوا إلى لجان الاقتراع للإدلاء بأصواتهم في انتخابات التجديد النصفي لمجلس الشورى ، بعد أن فاز أحد عشر عضوا بالتزكية . المذيعة الكذابة كانت تستخدم صيغة الفعل الماضي التي تفيد التقرير والحدوث ، وكان الواقع يكذب كلامها والصحف الحكومية نفسها التي صدرت في اليوم التالى تؤكد أن نسبة الحضور ٢٢% مع أن الواقع يؤكد أن الذين ذهبوا أقل من واحد بالمائة من مجموع الناخبين !

كنت أتمني أن يستفيد الناس بما أنفق على هذه الانتخابات الصورية في مشروعات مفيدة مثل الصرف الصحى وتنقية المياه الملوثة التي أهلكت كُلى المصريين وأكبادهم وأمعائهم ، ثم تقوم بتعيين من تختارهم وتجد لديهم الاستعداد للتصفيق الحاد ، والهتاف القوي ، والردح الأصيل لخصوم السلطة البوليسية الفاشية .

لن يعارضها أحد ،ولن يقف في طريقها أحد ، فكل الناس تخشى منهج " الفرم" الذي ظهر مع أزهى عصور الحرية والديمقراطية والرخاء والعدل والإنصاف !

كنتى أتمنى أن تريح الحكومة البوليسية نفسها ، ولا تعلن عن انتخابات صورية ، لا يحضرها أحد ، بل تعتقل من يترشح لها من الإخوان المسلمين " قمة المواطنة " ! وتلقي بهم مع الأنصار والأتباع في السجون ، وتحرمهم من ذويهم ، وأقاربهم دون جريمة تذكر ، فهم مثلا لم يغرقوا أكثر من ألف مصري في البحر ، ولم يقتلوا أحدا في حوادث القطارات والسيارات ، ولم ينهبوا أموال الدولة بالقانون في صفقات مشبوهة ، ولم يسرطنوا الغذاء ، ولم

يسمموا الدواء ، ولم يتصوروا على السيديهات المخلة ، ولم يقدموا للناس دما مغشوشا ، ولم يستولوا على أراضي الدولة بأقل من سعر التراب .

كنت أود من النظام البوليسى الفاشي أن يريح ويستريح ، ويعلن أنه سيختار الأعضاء الذين يعجبونه شكلا ومضمونا ، ويصدر قرارا بتعيينهم وكفى الله المؤمنين القتال .. فالناس تعلم جيدا أنه لا المعارضة مؤثرة ، ولا الصحافة مقلقة ، ولا تصريحات " مجرم الحرب " جورج بوش " مغيرة .

الناس واثقون تماما أنهم سيظلون هكذا تحت رحمة النظام البوليسي الفاشي حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا .. وهم واثقون أيضا أنهم يستحقون ذلك ؛ لأنهم صمتوا طويلا أمام القهر والعسف والتنكيل ، بل إنهم صفقوا لذلك وهتفوا .. هل نسينا ذلك الذي رقص في مجلس الأمة غداة الهزيمة ابتهاجا ببقاء الزعيم ، ونسى أن سيناء ضاعت مع القدس والضفة والقطاع والجولان ؟

الناس يعلمون أن مجلس الشعب ومجلس الشورى وبقية المجالس التى صنعها النظام البوليسي الفاشي على " جزمة" أصغر جلاد في دائرة اسطنها منوفية !!

عضو مجلس الشعب عن عن هذه الدائرة طبيب بيطري ، مرّغوه في الوحل ، ومزقوا ملابسه ، وسحلوه فى الشارع ؛ وهو خارج من سرادق عزاء ، وقالوا له : سعيكم مشكور ! وقال له الجلاد الصغير : أنت ومجلس الشعب "على جزمتنا" ! . نشرت ذلك الصحف والمواقع الألكترونية !

لم يغضب نواب الحصانة في الوطنى ، ولا أحزاب بير السلم ، لأن " جزمة " النظام ممثلا في أصغر جلاد فوق الجميع أوتحتهم ، شرف وعز ومجد وتقدير .. يالها من جزمة !! ولم تغضب صحافة لاظوغلى أو الحديد والصلب أو السيراميك أو التوكيلات أو الأراضى المنهوبة ، لأن جزمة البوليس تختلف عن الجزم الأخرى التي يؤلفون حولها الحكايات ، وينسجون عنها الأساطير .. أما جزمة البوليس ، فهي طاهرة ونقية ورائحتها زكية وتردّ روح أى صحفي من الخدم وأيّ عضو من الوطني وبير لسلم !

صحيح أن نواب الإخوان غضبوا واعتصموا وصدقوا ما قاله الرجل الثاني في البروتوكول عن حضور وزير الداخلية للاعتذار ، ولكن الأنباء جاءت بما لا يشتهى الرجل ، فالوزير لم ولن يعتذر ، وصحف لا ظوغلى قالت إن النائب هو الغلطان، لأنه سدّ الطريق بسيارته ، وأن الجلاد الصغير لم يتفوه بكلمة ، ولم يلمس العضو المحترم !واخبطوا دماغكم في أقرب حائط يابتوع الإخوان ، والمستقلين كمان !

ومع ذلك يخرج الصديق عصام العريان ليقول إن في الانتخابات سبع فوائد ومآرب أخرى !

إني أختلف معك يا دكتور عصام ، وأحرجك – على طريقة محاور العبارة ٩٨!– فدخول الانتخابات في ظل الأوضاع الجديدة غطاء شرعي للنظام البوليسي أمام العالم ، وفي ظل غياب الإشراف القضائى الحقيقي الكامل فلن ينجح أحد من الإخوان وربما ينجح واحد أو اثنان ، ولكن لن تتكر تجربة مجلس الشعب ٢٠٠٥م ، وإحساسي يقول إن النظام سيحل المجلس ليتخلص من مجموعة ال٨٨ ، ويأتي بمجلس آخر غير مزعج لن يتسرب إليه عضو واحد من الإخوان ، فالتزوير سيكون علنيا وواضحا ، وعلى عينك يا تاجر !

ومن باب أولى أن يستجيب أعضاء ال٨٨ لكرامتهم قبل كرامة زميلهم المسحول ، ويقدموا استقالة جماعية قبل أن يقيلهم النظام من خلال حل المجلس في تغييرات بدت بشائرها في ظهور نجل الرئيس قبل الرجل الثاني في البروتوكول على شاشة التليفزيون في أثناء الإدلاء بأصواتهم !

وأظنك تذكر يادكتور عصام أن الجلاد المجرم الذي الذي أعلن ذات يوم أن سيضرب في سويداء القلب ، وأنه على استعداد لقتل خمسمائة ألف مواطن من أجل الاستقرار ، لم يقل ذلك عبثا ، أو كان فلتة لسان ، أو تعبيرا عن رؤية شخصية ، ولولا أن فضحته جريدة "الشعب" – المغلقة – وهو يسبّ أصحاب المناصب الكبيرة والصغيرة ، يومها كتب "عادل حسين" – رحمه الله – خذوا السكين من يد هذا المجرم ! لولا ذلك لمضى الأمر كما يريد المجرم الجلاد ، ولقتل من شاء ، دون أن يسائله أحد !

الانتخابات لا فوائد لها في ظل هذا الوضع الشائن الشاذ ، والضحايا يدفعون ثمنا بلا مقابل ، والأولى في هذه المرحلة على الأقل ؛ تحرير الناس ، والشباب خاصة ، من الغيبوبة التي يصنعها النظام بالكذب والتزييف والتزوير والقهر ، والاعتماد على أحزاب بير السلم التى يديرها أصحاب مصالح صغيرة ، وخاصة سلالة هنري كوربيل !

علموا الناس كيف تتحرر بالقرآن وقيمه وسلوكه من عبودية الجبابرة والطغاة ، ربّوا الأجيال تربية قرآنية ،حرمت منها في المدرسة والجامعة والإعلام والثقافة ، وهي مهمة صعبة للغاية ، وأصعب من السياسة بكثير ، ولكنها أكثر جدوي ، وأكثر تأثيرا ..

وساعتها سيسقط الجلادون الفاشيون تلقائيا .. واسلمي يامصر !

***

تحريم الختان .. واستقلال الأمة !

أعلنت إحدى المحاميات عن تطوعها للدفاع عن الطفلة " بدور " التى قضت ، وهى تجرى عملية ختان فى إحدى العيادات بسبب جرعة التخدير الزائدة أو الإهمال . بالطبع هذه المحامية لم تعلن عن تطوعها للدفاع عن عشرات الأطفال من الصبيان والبنات الذين أغرقتهم العبّارة السلام ٩٨ مع آبائهم وأمهاتهم الذين تجاوزوا أكثر من ألف مصرى بائس كانوا قادمين إلى الوطن الذى شرّدهم فى فجاج الأرض بحثاً عن الرزق أو اللقمة المغموسة بالعذاب والعناء ! وذلك لأن صاحب العبارة ينتمى إلى الصفوة الحاكمة بالحديد والنار والقوانين المفصلة على حجمها ورغبتها !

كما أعلنت بعض الجهات عن تدشين حملة " قومية " (!) لمناهضة ختان الإناث ، بعد أن أصدر مفتى السلطة فتواه الحرام بتحريم الختان ، وأعلن بيان صادر عن مجمع البحوث الإسلامية عن تأييد هذه الفتوى الحرام ، وظهر شيخ معمم ممن يحبون المال حبا جما ، ولو كان حراماً ، على شاشة التلفزة ليقول إن موضوع الختان لاوجود له فى كتب الفقه أو الشريعة ، بل زعم أنه لا أصل له فى الإسلام !

وكان وزير الصحة الذى اعترف قبل أيام قليلة من أول هذا الشهر (يوليو ٢٠٠٧م) بوجود حالات تسمم بين أطفال إحدى القرى فى الصعيد بسبب تلوث المياه ، يعلن عن معاقبة كل من يجرى عملية الختان فى العيادات أو المستشفيات ، والطريف أن الصعيد قدم لنا فى الوقت ذاته جلاداً سحق المتظاهرين فى ميدان التحرير وقاد قوات القمع والضرب والسحل وهتك أعراض الصحفيات أمام نقابة الصحفيين ، وداس جلادوه الصغار على وجه قاض أمام نادى القضاة بعد أن أوسعوه ضرباً وسحلوه فى الشارع وشحنوه فى سيارات الأمن المركزى مثل المجرمين إلى حيث التحقيق معه ، هذا الجلاد الذى صار مسئولا قاد مظاهرة (شعبية) صعيدية تضامنا من أجل الطفلة " بدور " !

أما هوانم الصالونات ووصيفات الحرملك وكتّاب البلاط ، فقد طالبن بسنّ قانون من خلال مجلس الشعب ، لتحريم الختان ، وتجريم من يقوم به سواء كان ولى الأمر أو الطبيب أو غيرهما .

وفى الأهرام الصادرة يوم الثلاثاء (٢٠٠٧/٧/١٠م) ، أعلنت منظمة " بلان ألمانيا " والسفارة الهولندية فى القاهرة عن تقديم " مليون دولار = ستة ملايين جنيه تقريبا " لتنفيذ مشروع ختان الإناث ودعم تمكين المرأة (؟) فى محافظات القاهرة والقليوبية والجيزة والبحيرة . والمشروع يتضمن – كما قالت الجريدة الحكومية – إطلاق حملة وبرامج لتوعية المواطنين بجميع محطات مترو الأنفاق من خلال إذاعة لقطات تسجيلية تظهر مدى خطورة هذه الظاهرة وآثارها السلبية سواء الصحية والاجتماعية من خلال رأى علماء الدين والأطباء .

بالطبع فإن السفارة الهولندية بالقاهرة ، أو بلان ألمانيا ، لا يعنيها أن توجه المنحة " المليون دولار " إلى تحسين وضع مياه الشرب في قرى مصر ومدنها ، وهو الوضع الذي يزرى بالمرأة المصرية والفتاة المصرية التى تبحث عن المياه بالجرادل والبلاليص في أبعد الأماكن ، أو تضطر إلى شرب المياه الملوثة من الآبار والترع والمصارف ، واستخدامها في الاستعمال اليومي .

هناك من يبحث عن قضايا تافهة لم تغير بنية المجتمع المصرى منذ سبعة آلاف سنة وقبل دخول مصر في الإسلام ، مثل قضية الختان ، ويترك عمدا قضايا أخرى مهمة وملحّة وحيويّة ، مثل توفير المياه الصالحة للشرب التى اضطرت مؤخرا مجموعة من القرى والمدن في منطقة البرلس محرومة منها للعصيان المدنى ، وقطع الطريق الدولى لمدة اثنتى عشرة ساعة ، وتوقفت حركة السيارات والبشر ، حتى وصلت المياه بيوت المواطنين، فأطلقوا سراح المحصورين من السيارات والبشر ، وانتهى الأمر في البرلس ، لتظهر المشكلة دون حل في مناطق أخرى عديدة بأنحاء الدولة !

سفارة هولنده أو منظمة بلان ألمانيا ، أو منظمات المجتمع المدني الغربية لا يهمها أن تسهم في في حل المشكلات الحقيقية للمجتمع المصرى أو المجتمعات العربية أو الإفريقية أو الآسيوية ، لأنها تحمل مشروعا تعرفه جيدا وتعمل من أجله بكل حرفية ودقة ، يمكن تلخيصه في كلمة واحد’ " اسمها " التغريب " الذي يقود بالضرورة إلى التخلى عن هوية الأمة وخصائصها واستقلالها لصالح التبعية للدول الاستعمارية المتوحشة ، التي تعمل على نهب شعوبنا واستغلالها وحرمانها من الحرية الحقيقية والسلوك القويم والبناء الحقيقي للإنسان والمجتمع !

ويخطئ من يتصور أن إثارة هذه القضايا التى لا تعني الناس في مصر أو العالم العربي ؛ نوع من الصراع بين فريقين في المجتمع ، من يسمونهم بالإسلاميين او الأصوليين ، ومن ينعتونهم بالليبراليين أو المستنيرين ، فالمسالة أبعد من ذلك ، لأن الغرب الصليبي الاستعمارى المتوحش ، يعلم جيدا أن " الإسلام " هو عنصر المقاومة الحقيقي لمشروعاته الشيطانية ضد امتنا وضد وجودها المستقل ، لذا يسميه الإرهاب أو الأصولية ، ويردد خدامه من المعادين للإسلام ما يشيعه من مصطلحات مجرمة وآثمة . وما بالك بمن يسمى الإسلا م بالإظلام ؟ أو الظلام ؟ ، ويسمى الإسلاميين بالظلاميين ؟

إن المسالة ليست تعصبا للختان أو رفضا له ، بقدر ما هى صراع بين فريق يدافع عن إسلامه أمام الاستباحة المدججة بقوة السلطة الغشوم التى تحشد علماء السلطة وفقهاء الشرطة ، والإعلام الذي تهيمن عليه بالأبواق المأجورة ، مع الدعم العلنى من مؤسسات غربية استعمارية ، لا تخفى أهدافها ، ولا تتستر عليها ، وفريق لا يعنيه إلا تنفيذ الأجندة

الغربية الاستعمارية بحذافيرها ، ولا مانع لديه من استخدام الوسائل الخسيسة المنافية للعلم والجدل المنطقى والحوار الموضوعي .

إن المواثيق الدولية والمعاهدات الحكومية وحقوق الإنسان التى تواضع عليها الغرب الاستعمارى ؛ ليست بالضرورة متطابقة مع واقعنا وقيمنا ومعتقداتنا . ويوم حكمت إحدى المحاكم المصرية بتطليق امرأة نصرانية من زوجها النصراني ، فإن الأنبا شنودة – رئيس الكنيسة المصرية – رفض هذا الحكم لأنه يخالف ما جاء في الإنجيل حسب مفهومه .. يومها لم ينطق أحد من الليبراليين أو المستنيرين .. ولكنهم يفتحون أفواههم للإفتاء في الإسلام دون علم ودون فقه ، مع أن بعضهم لا يعرف فرائض الوضوء ، أو عدد ركعات الصبح أو الظهر .

أعجبنى ما قاله " ضياء رشوان" في تساؤله الدال:

" فهل يظن معارضو الختان أنه العقبة الوحيدة أمام حصول المرأة المصرية على حقها في الاستمتاع بعلاقتها الحميمة مع زوجها ؟ ألا يعوق دون الوصول إلى هذا الاستمتاع عشرات من العقبات الأخرى ؛ من بطالة متفشية بين الجنسين ، وأزمة خانقة ، وغلاء فاحش في أسعار المساكن ، وفقر يتفشى بين عموم المصريين بما يحول دون قدرتهم على الزواج أصلا ، بما يرفع نسبة العنوسة بين الفتيات والرجال إلى أعلى نسبة في التاريخ المعاصر لمصر ؟ .." (المصرى اليوم ٢٠٠٧/٧/٩م)

ثم إن القضية ليست زيادة في الإسلام بإجراء الختان ، ونقصانا له بتركه ، ولكنه من الأمور المباحة التى ينبغى أن تتم لمن يريد تحت إشراف طبى أو بمعرفة الأطباء .. ولكن المشكلة الحقيقية هى إثارة مشكلة لم تزعزع البنيان الاجتماعى الشعبي على مدى سبعة آلاف سنة ، مع ترك قضايا أكثر أهمية وإلحاحا ، لنزوّق صورتنا أمام الغرب الصليبي الاستعمارى الذي يقتل المئات يوميا وعلى مدار الساعة في العراق وأفغانستان وفلسطين والصومال وغيرها بدم بارد .. فهل تعنيه حقا قضية بدور " ؟ وهل تعنى قضية بدور حكومتنا فعلا ؟ إن العشرات يموتون يوميا على قارعة الطريق في بلدنا وفي المستشفيات ومن خلال الحوادث ومن الجوع وأمراض الفشل الكبدى والكلوي والسرطان الذي جاء به وزراء الزراعة في الأسمدة السامة والمبيدات القاتلة والهرمونات المؤذية .. بيد أن السلطة البوليسية الفاشية يعنيها أمر واحد فقط ؛ هو استئصال الإسلام حتى يرضى عنها الغرب الصليبي الاستعمارى والصهاينة الغزاة اليهود ، وما هم براضين أبدا !!

ويكفي أن السلطة البوليسية الغشوم تفتح واحدة من أكبر جامعاتها أمام حاخام يهودى إرهابي لينتقص من الإسلام وينشر الأكاذيب المخالفة للقرآن الكريم ، وفي الوقت نفسه تغلق أبواب كل الجامعات أمام علماء الإسلام ودعاته ومن تشم فيه رائحة الإسلام !!!!

إن الدفاع عن قضايا الإسلام أمام الاستباحة الاستعمارية ، هو دفاع عن استقلال الأمة وشرفها وكرامتها!

***

فضيلة المفتي ..

وتحريم الختان!!

يبدو – والله أعلم – أن فضيلة مفتي السلطة – رضى الله عنه ! –صار كنزا ثمينا يتداوله القائمون على أمر تشويه الإسلام واستئصاله ، من خلال استغلال طيبة قلبه ، وسلامة نيته ؛ في إصدار الفتاوى التي تجعله رجلا " تقدميا مستنيرا " ، يختلف عن أولئك الجامدين المتحجرين الرجعيين الذين يصرّون على التمسك بالكتاب والسنة والإجماع ، ولا يتطوّرون مع الزمان ، ولا متطلبات " ماما " أميركا ، ولا مؤتمرات الأمم المنحدة ، التي تهتم بقضايا المرأة ، والمثلية الجنسية ، والجنس الآمن وما شابه ، في الوقت الذي لا تعبأ فيه بقتلى المسلمين وشهدائهم في العراق وأفغانستان وفلسطين والسودان وتشاد والشيشان وغيرها ، ولا تذكر – مجرد ذكر – شيئا عن سبعة ملايين لاجئ فلسطيني ، نصفهم من النساء والبنات ، يقتلهن الجوع والفقر والتشرد وأحوال الطبيعة الحارةوالباردة وأحوال السياسة العربية التي تغلق في وجوههن الحدود وتقيم السدود وقوات اليونيفيل وغيرها حتى لا يعود اللاجئون؛ رجالا أو نساء إلى بلادهم ومدنهم وقراهم !

فضيلة مفتي السلطة – رضى الله عنه !– أصدر لأول مرة في تاريخ الإسلام والمسلمين فتوى تحرم ختان الإناث على الهواء مباشرة ، ومن خلال اتصال هاتفى مع قناة فضائية يملكها رجل قروض ، وحين سألته المذيعة : مارأيك في ختان البنات ، أجاب الرجل إجابة قاطعة حاسمة ، جامعة مانعة ، وقال بالفم الملآن : حرام!

ظلت مذيعة قناة رجل القروض تردد وكأنها في حلقة ذكر مع الدراويش : ختان الإناث حرام .. مرات عديدة طوال البرنامج ، وكأنها تمضغ لبانة شهية لا تستطيع التوقف عن مضغها ..!

وانهالت على الفور مكالمات من حرملك سلاطين الدولة ووصيفاته ، تشكر المفتي الشجاع الذي استطاع في جرأة يحسد عليها أن يقطع في مسألة طال الكلام فيها منذ مؤتمرى القاهرة وبكين ، ويقرر في النهاية أنها حرام ، ويجب بمفهوم السياق معاقبة كل من يقوم بهذا الأمر؛ سواء كان ولى أمر أو طبيبا ، أومستشفى !

اتكأ البرنامج الذي أذاعته فضائية رجل القروض على حادثة موت فتاة صغيرة تدعى " بدور " ، قيل إنها كانت تجرى عملية ختان في عيادة أحدالأطباء أو الطبيبات ، وتأثرت الفتاة نتيجة التخدير أو الإهمال فلقيت وجه ربها .. وجاء القوم بأم الفتاة إلى المحطة التلفزيونية ، وجلبوا لها امرأة تتحدث باسم الفتوى (!!) وشابا بإحدى منظمات العمل المدني ، وراحوا جميعا يصبون الهلاك على المعتدين من أهل الإسلام الرجعيّين المتخلّفين – وخاصة بعد أن أسعدهم مفتي السلطة – رضى الله عنه ! – بفتواه القاطعة الحاسمة : الختان حرام !!

كان فضيلته قبل أيام يعاني الأمرّين من أجهزة الدعاية الرسمية وغير الرسمية (قنوات رجال القروض وأشباهها!) حين تحدث عن التبرك ببوال الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – مما اضطره إلى سحب كتاب من السوق كان يضم فتواه أو حديثه!

قبل ذلك كنت قد تحدثت عما سميته " اللهو الخفى !" ؛ حين صدرت بعض الفتاوى الغريبة في وقت بعينه ، ومنها ما يسمى بإرضاع الكبير أو زميل العمل ليحل الاختلاط بين الموظفين ، وقلت إن شياطين الإنس من أعداء الأمة والإسلام ، يستدرجون السذج من المنتسبين إلى علماء الدين الإسلامي ليطلقوا فتاوى ما أنزل الله بها من سلطان ، في وقت يتم فيه استئصال الإسلام بوحشية وإجرام غير مسبوقين ؛ خدمة للعدو النازى اليهودي في فلسطين المحتلة ، وسادته الصليبيين الاستعماريين في أميركا والغرب .. وقلت إن هذه الفتاوى – إن صح تسميتها فتاوى – تأتي للتغطية على التمكين للاستبداد والطغيان ومصادرة الحريات ونهب أموال الأمة بقوانين جائرة ، وتعديلات دستورية شائهة ؛ الهدف منها تكريس حكم طبقة مستبدة مستغلة فاسدة مفسدة ، لا يعنيها أمرالوطن ولا الأمة ؛ فضلا عن الإسلام !

وبعيدا عن الجدل الفقهى ؛ أسأل فضيلة مفتى السلطة الذي أسعد نساء حرملك سلاطين الدولة ووصيفاته ، في أرجاء البلاد : هل قضية الختان تمثل مشكلة رئيسة في واقعناالإسلامى اجتماعيا وثقافيا وفكريا ؟ وهل تمثل كارثة ملحة ينبغى التصدي لها ومواجهتها ، حتى لا يتم تدمير الدولة أو تعريضها للمخاطر الجسام ؟

يعلم فضيلة المفتى ، وحرملك سلاطين الدولة وووصيفاته ؛ أن الناس في مصر على امتداد سبعة آلاف سنة ؛ أى قبل مجىء الإسلام بقرون طويلة ؛ يقومون بختان الرجال والنساء ، وكان يقوم به حلاقو الصحة والغجريات (نساء الغجر اللاتي يدرن في الأرياف وينادين لمعرفة البخت والحظ ، ولا أعلم إن كان فضيلته فلاحا مثلى ، أو من أهل المدن لم يسمع بهن ؟!)، وكل نساء مصر ورجالها جرى لهن الختان ، ولم يمثل مشكلة على مدى الآلاف السبعة من السنين! .. فلماذا الوقوف عند هذه المسألة بالذات في هذه الأيام ؟ خاصة وأن الفقهاء لم يحرّموه من قبل، بل جعله بعضهم مكرمة ، يفعله من يشاء ، ويتركه من يشاء .. بل إن دولا عربية بعينها لا تنفذه ، فلماذا تحرم مباحا يا فضيلة المفتي دون مسوغ اللهم إلا إرضاء الغرب الصليبي ، ونساء الحرملك ووصيفاته في أرجاء البلاد ؟

إن تقييد المباح – وليس تحريمه يا فضيلة المفتي !– يأتي في الأمور الخطيرة التي تهدد مصالح البلاد والعباد .. ولا اعتقد أن الختان يمثل معضلة قومية كبري مثل قلة المخزون من القمح مثلا ، اللهم إلا إذا كان خطره ينسحب على تقليل النسل بسبب برودة النساء وعدم ميلهن إلى الحمل والإنجاب ، مما يمكن الأعداء من هزيمتنا ، وهنا يكون الإرشاد والتوجيه

بعدم ممارسة الختان لخدمة المصالح العليا وإنجاب الرجال لمواجهة المعتدين .. ثم إن هناك مناطق حارة في أماكن أخرى تختلف عن المناطق الباردة في أوربة ، تجعل الختان ، وفقا لمنهج "اقطعى ولا تجورى " أمرا مستحبا لتخفيف الشهوة وراحة البدن ، والتوازن النفسي .

إني أتمنى يا فضيلة المفتى أن تتوجه بالفتوى إلى أمور تمس حياة الناس وواقعهم فعلا ، ولا تهم نساء الصالونات المتفرنجات الكارهات للإسلام وقيمه ومفاهيمه . وسوف أستفتيك بعض الفتاوى ، وأرجو أن تجيب عليها بصراحة ووضوح وعلنا ، مع إعلان أسفى مسبقا لقتل الفتاة " بدور " وآلاف غيرها ؛ رجالا ونساء تهملهم وزارة الصحة والمستشفيات الخاصة التي تفرض إتاواتها على الفقراء من المرضى فيموتون ويذهبون في صمت :

أولا :ما حكم من قتل أكثر من ألف مصري في العبارة السلام ٩٨؟وما حكم الإسلام فيمن ساعده وهرّبه ، وأرسل إليه بعثة تلفزيونية تكلفت الآلاف من عرق المصريين البائسين ، ليبيّض وجهه ويحسّن صورته ، ويجعله بريئا طاهرا عفيفا شريفا ؟

ثانيا : ما حكم من يستور القمح المسرطن ، ومن يلوث مياه الشرب بالمبيدات ومخلفاتها ، فيصيب الملايين بالفشل الكلوى والكبدي والمعوي؟وتكون النتيجة الطبيعية الموت الزؤام بعد ذل وهوان على أبواب المستشفيات والمستوصفات ومعامل الحليل ؟

ثالثا : ما حكم من يسرق حرية الشعب في تقرير مصيره وسياسته ، ومن يزوّر الانتخابات جهارا نهارا ليأتي بأنصاره كي يصنعوا قوانين " مفصلة على قدّهم" تمكنهم من النهب والسرقة بالقانون ؟'أأيك في ختان الإناث ؟ أجاب الرجل على للفور إجابة قاطعة حاسمة جامعة مانعة أأ

رابعا : ما حكم من يحارب الإسلام ويسميه الإظلام ؛ في التعليم والإعلام والثقافة والأوقاف ، ويلقى بآلاف الشبان وراء القضبان ، ولا يفرج عنهم تنفيذا لأحكام القضاء ؟

أفتنا – هدانا الله وإياك !

***

ملكة بريطانيا .. وميزانية الأوسمة!

كنت أودّ أن أقول لملكة بريطانيا العظمى (سابقاً) : إنها يجب أن تُخصص ميزانية كبيرة للأوسمة التى تمنحها للكتاب والمثقفين وأهل الإدارة فى البلاد العربية الإسلامية ، فعددهم أكثر مما تتصور ، وقد نجحت الدول الأوروبية الاستعمارية ، ومعها أمريكا فى صناعة الآلاف من عينة سلمان رشدى وتسليمة نسرين ووفاء سلطان وإرشاد منجى وشاكر النابلسى ، ناهيك عن مثقفى الحظيرة العرب وكتاب لاظوغلى العرب واليساريين المتأمركين العرب !

لكن خذلنى مذيع تلفزيونى مشهور ، اتفق معى على السفر إلى مقر القناة التى يعمل بها ، بعد أن (رغى) معى وقتاً طويلاً فى قضية " الوسام " الذى منحته الملكة البريطانية للمدعو " سلمان رشدى " ..

كان المذيع المشهور ، ولا أعرف كيف توصل إلى هاتفى فى أعماق الريف ، حيث أحيا بعيداً عن الأضواء التى لا أُحبها ، ولا أسعى إليها ، ولا أفهم فى قوانينها ومقتضياتها .. وأفضل أن أعيش فلاحاً بسيطاً بعد أن جاوزت الستين ، أقرأ ما يروقنى ، وأكتب ما يعتقده ضميرى ، ويؤكده إيمانى ، أقول : كان المذيع المشهور حريصاً على مشاركتى في برنامجه ، ووجدتنى تلقائيا مع كرهى للسفر ومتاعبه ، أوافق ببساطة وسذاجة ، وأستعدّ للجدال فى قضية يراها بعض " الخونة " العرب أمراً طبيعياً يصدر عن جلالة الملكة البريطانية ، فهى تُكافئ سلمان رشدى لمجمل أعماله الأدبية الرائعة ، وفى الوقت ذاته تشنّ حملات ضارية على الشيخ يوسف القرضاوى ، وتعده إرهابيا يجب منعه من دخول عاصمة الضباب !

فخامة المذيع المشهور وعد أن يتصل بى بعد ساعتين ليتحدث معى – كما فهمت – عن إجراءات السفر ونقاط الكلام ، ولكنه لا حس ولا خبر ، بعد أن مضت الساعتين والساعات والأيام ، وجاء بآخر أو آخرين يتناولان الموضوع !

قررت بعدئذ أن أعيش سلطانا فى أعماق الريف ، حيث لا أضواء ولا علاقات عامة ، وأخذت على نفسى عهداً ألا أغادر القاهرة من أجل برامج ، يتحكم فيها الهوى والعصبية والمذهبية ، وربما البيزنس الذى يعقد عليه أصحاب المكاتب والمراسلون فى القاهرة آمالاً كبارا فى إنعاش جيوبهم ونفوسهم ..

ما الفارق الذى أقوله فى مقال قد يطالعه نفر محدود ، وحديث قد تشاهده الملايين ؟

لا فرق ، فالأمة سئمت من المقالات والأحاديث ، ولكن الأمل فى كل الأحوال يبقى قائماً ، حين يتأثر فرد هنا أو هناك برأى سليم ، فيتولى تنفيذه عندما تدفعه الأقدار إلى موقع المسئولية .. وأعتقد أن كل الأفكار التى نادت بها (الحركة المباركة !) فى يولية ١٩٥٢ ، وكانت نتاجاً لكتابات الأدباء والمثقفين طوال ستين سنة مضت ، مذ بدأت مقاومة الاستعمار البريطانى ، ومكافحة استبداد القصر .. مئات الصحف وآلاف الكتاب والشعراء ، والكتب

والدواوين ، كانت كلها تتكلم عن الإصلاح والمستقبل .. لم تكن (الحركة المباركة !) وليداً شيطانياً من حيث الفكر ولكنها كانت بنت الرسالة والثقافة ومجلات الإخوان والشبان المسلمين والجمعية الشرعية وغيرها .. (هل تعلمون أن الجمعية الشرعية فى الخيامية تبنت إقامة أول مصنع لنوع من ملابس الفلاح المصرى ؟ ثم امتد الأمر وتوسع فيما بعد بالمحلة الكبرى وغيرها ؟) .

لا يوجد فارق كبير بين مقال فى صحيفة محدودة وحديث فى قناة ممدودة .. ولكن بعض السادة الأشاوس والنشامى ، من أهل الإعلام وخاصة المرئى ، يظنون أنفسهم ملوكاً ، يرفعون من يشاءون ويخفضون من يُريدون .. ولكنى أرى المسألة غير ذلك ، وأراهم " نرجسيين " إلى درجة عبادة الذات ، وهم فى كل الأحوال سيذهبون مثلما يذهب غيرهم من الناس ، ولا يبقى من هؤلاء وأولاء إلا البذور الطيبة الصالحة للإنبات .

" سلمان رشدى " لا يعنينى ، ولكن تعنينى صناعته ، وهى صناعة ثقيلة بلا شك ، أتقن الغرب الاستعمارى واليهود الغزاة صناعتها ، حيث خاطبوا نقاط الضعف فى بعض الأشخاص الذين ينتسبون إلى الأمة الإسلامية بالمولد أو النشأة ، وراحوا يستفيدون من مناخ الاستبداد القائم فى معظم بلدان العالم الإسلامى ، فروّجوا لهؤلاء الأشخاص ، بدعوتهم إلى ندوات ومؤتمرات ورحلات في العالم الغربي ليست فوق مستوى الشبهات ، وأرسلوا إليهم من يتبنى إنتاجهم الردىء بالترجمة والتعريف ، ومنحوا جوائز لكل من يسبّ الإسلام أو يُشكك فيه ، وأتاحوا الفرصة للحصول على الشهادات العلمية الرفيعة لمن يدرس اللهجات العربية وغير العربية فى بقاع العالم الإسلامى .. ثم – وهو الأخطر – فرضوا على الدول العربية والإسلامية التى تتلقى معونات أو تفرض عليها حمايات ، أن تغير الخطاب الدينى الإسلامى ، أى تغيير الإسلام ، وتستأصله من الثقافة والتعليم والإعلام والأوقاف – نعم الأوقاف وتفسير ذلك يطول ولعل مناسبته تأتى إن شاء الله – وأعتقد أن زعماء وسلاطين هذه الدول هم الذين يستحقون الأوسمة من عينة " فارس " أو ما فوقها ، لأنهم يؤدون خدمات جليلة لإنجلترا والغرب كله فى هزيمة أوطانهم ، وانتصار الغرب واليهود .. ومرة أخرى .. ليت ملكة إنجلترا رئيسة الكنيسة البروتستانتينية – أساس المواطنة هناك – تخصص لهؤلاء الأشاوس والنشامى الذين صاروا يفوقون " سلمان رشدى " ولاءً وحبّاً وتماهيا مع الغرب الاستعمارى ، ميزانية خاصة تتناسب والعدد الضخم الذى يُشكّلونه فى أرجاء العالم الإسلامى .. ألم تذهب بعض الجوائز المحلية لشعراء تزغيط البط و " الذات الإلهية التى تنظم المرور فى شارع زكريا أحمد ؟

ولا غالب إلا الله .

***

رماد الفيوم .. وخردة كفر الدوار

بعيدًا عن أجهزة في سيارات الأجرة للمسافات الطويلة تستطيع أن تلمس نبض الشعب المصري الحقيقي، الناس، وتلح على أن كل شيء على ما يُرام الإعلام والصحافة، التي تُقدِّم في الغالب صورةً ورديةً لأحوال.

واحدٌ منهم، ولا تستطيع أن تُفسِّر سبب وفي بعض الفترات يصمت الركاب عن الكلام.. نادرًا ما يتحدث
السطحي المتعلق بانشغال كلٍّ واحدٍ بهمومه الخاصة، ومشكلاته عزوف الناس عن الكلام، اللهم إلا التفسير
أحيان أخرى ينطلقون كأنهم السهام المُصوَّبة إلى الأعداء في ميدان المعركة.. لماذا؟ الذاتية.. ولكنهم في
يصعب أيضًا تفسير ذلك، تفسيرًا عميقًا ودقيقًا وشاملاً.

الذي أعادهم إلى عصر الخواجة اليهودي تحدَّث فلاحان في أسى عن مشكلات السماد والقطن، وبنك القرية
المرابي!

الثقافة ومتابعة الأحداث، قال: أما سمعتم وفجأة انتفض أحد الركاب، كانت ملابسه تشي بأنه على شيء من
ولم يطفئوه إلا بعد عشرين ساعة؟ عن الحريق الذي شبَّ في العدوة بالفيوم،
ولكن أحدهم تحدَّث بحزن عن الأشخاص الثلاثة الذين انصهروا لم يقصد الرجل أحدًا معينًا بسؤاله أو كلامه،
الرعب الذي استولى على الناس في المنطقة المحيطة به، فخرجوا على وجوههم في الحريق، والفزع أو
لم تُجد معها الأمهات يحملن أطفالهن، وبات كثيرٌ من الخلق ليلته في العراء بعيدًا عن النار التي هائمين،
رماد الوقود وتحوَّل إلى الطائرات العسكرية الخاصة بإطفاء الحريق، الذي ظل مستعرًّا حتى انتهى!

تحدَّث في قناة ،الفيوم صاحب المعالي محافظ قال أحد الركاب بغيظٍ واضح: إن سيادة اللواء الوزير الدكتور
الموقف"، ونسى معاليه أن الناس كلها في المحور وقال بتأفف وكأنه يعمل مجانًا: "أدينا في الشارع نتابع
وربما كان سيادته ينام القيلولة ويغطّ في نومه منسجمًا وسعيدًا، العدوة تركوا بيوتهم، وخرجوا إلى الطرقات،
العدوة ولفحها الرهيب، ثم نزل بعد أن أبلغوه أن وزير البترول حضر من القاهرة ليتابع مأساة وبعيدًا عن النار
وأهلها بنفسه.

من أصحاب العيون الزرقاء يعني من أوروبا، زفر الراكب زفرةً ذات دلالة، وقال: لو أن أهل العدوة، كانوا
لكانت الحكومة كلها ذهبت إلى العدوة، وجلبت كل إمكانياتها لتنقذ أو حتى كانوا سياحًا من جنوب إفريقية،
عليهم اللواء لهم أفضل سبل الرعاية والاهتمام، ولكنهم للأسف من المصريين الغلابة، الذين منَّ الأهالي وتوفِّر
وتفضل بالنزول بعد القيلولة، وبعد بداية الحريق بست ساعات، الفيوم الوزير الدكتور صاحب المعالي محافظ
أن واجبه الأول هو التأكد من وسائل الأمان في مستودع الوقود الذي احترق، ولكن ونسى سعادته أو سيادته
للحزب الوطني.. سيادته فيما يبدو مشغول بأمور أخرى، من عينة اختيار مرشحي الشورى، وكسب الأنصار
البعض بأكثر من مائتي طن في واحد فقط أما أمن الناس وأرواحهم، أما الحفاظ على ثروة البلاد التي يُقدِّرها
ولا قيمة من الخزانات فهذه أمور ثانوية لا أهميةَ لها.

حالنا.. منهم لله مَن كانوا السبب قال أحدهم في يأس: يا عم.. المنحوس منحوس.. اتركونا في!

وسحابات الدخان الأزرق التي ينفثها فم السائق خيَّم الصمت على السيارة، لا يقطعه إلا صوتُ المُحرِّك،
وكأنه تعود على مثل هذا الكلام منذ زمان، فلا يعنيه أمر أحد الذي بدا مغيبًا عمَّا يقوله ركابه،.

وكأنه ينعى نفسه لمَن يسمعه: مَن لم يمت بعد فترة، جاء من الكرسي الخلفي للسيارة صوت أحد الأفندية
واحد بالوقود مات بغيره، تعددت الأسباب والموت!

العيون حاولت أن تسترق النظر إليه.. مما كان الصمت هو الإجابة الوحيدة على كلامه، وإن كانت بعض
..مثلما يصهرونهم في خزانات الوقود بالفيوم الدوار كفر أحياءً في دعاه برهة إلى القول: إنهم يقتلون الناس
المعاش المبكر؟" لقد " ماذا تنتظر من إحالة مهندس إلى التقاعد وهو في ذروة عطائه وعمره، فيما يسمونه
..والعمال فعلوها مع آلاف الفنيين والمهندسين والخبراء

:واستطرد الرجل
لعشرات السنين مستقبلاً، ولكنهم لقد باعوا المصانع خردةً، وهي سليمة، يمكن أن تعمل وتنتج -
تُباع للمحظوظين بمبالغ رخيصة وزهيدة جدًّا لا تساوي ثمن الحديد كي وخردة "كهَّنوها" أي جعلوها كهنة
تطبيقًا لما يسمونه سياسة الخصخصة القديم المستعمل،!

جاء المشتري الذي اشترى بعض الآلات، وقال الرجل: كنت مهندسًا في أحد قطاعات مصنع البيضا، وحين
يعتمد عليه في تشغيل الآلات كهربيًّا، لم يكن الكابل مدونًا أصرَّ على أن يأخذ "كابلاً" طوله أربعون مترًا
!رفضت تسليمه له، جاء "الكبار" ومنحوه "الكابل"، ومنحوني معاشًا مبكرًا بالصفقة المباعة وحين

تتعايش وتتوالد، وتؤكد القتل العمد، ليس عنابر الإنتاج في المصنع الكبير تمرح فيها الكلاب والقطط،
!المصري التعيس للصناعة والإنتاج فحسب، ولكن للإنسان

مباشرةً التي تحوَّلت إلى خردة، ويشتريها المنتفعون "الكبار"، وينقلونها إلى مصانعهم الدوار كفر مصانع
والحسرة، وتبكي أمام قبر "طلعت برخص التراب، وتخلف وراءها آلافًا من الأُسر التي تقتلها البطالة والغلاء
ولكن قتلة الأمل باعوا كل شيء بأرخص الأثمان، باشا حرب" الذي أسس لاقتصادٍ حقيقي وإنتاج حقيقي،
!المستقبل وراحوا يحدثوننا عن

تستحثني على التعليق، فأنا الوحيد الذي يرتدي كان عليَّ أن أستمع ولا أُعلِّق، مع أنَّ عيون الرجل كانت
بالكلام، ولكن مرضي ومتاعبي الصحية، تجعلني غير قادر على النقاش رابطة عنق، ومنظره يُوحي بأنه الأحق
.معمعة، فضلاً عن أنه يملؤني همًّا وكدرًا لا طاقةَ لي بهما أو الدخول إلى

كفر وخردة ..الفيوم رماد فقارنت بين في المساء، عادت إلى ذهني حوارات السيارة وصورة ركابها،
فتركنا أنفسنا فوجدتُ علاقة وثيقة دالة على مدى العجز الذي أصابنا، والهزيمة التي أحاطت بنا ،الدوار
وانتعش اللصوص والسماسرة للضياع، وبعنا أغلى ما نملك، انتظارًا لمجهول، فباض الفساد وفرّخ،
الحقيقيين، وصاروا لعبةً بأيدي فاقدي الضمير والملوّثون، وضاع البسطاء من الفلاحين والعمال والمنتجين
!والإنسان والأشرار وأعداء الله

الوقود في كل الدنيا، تكون عادة تحت وطرأ على خاطري سؤالٌ؛ بل أكثر من سؤالٍ، أهمها: خزانات
الأرض؟ وكيف سنواجه الموقف إذا تعرَّضت البلاد لعدوانٍ الأرض، حمايةً للناس.. فإلى متى تستمر فوق
والطائرات، حيث تكون هذه الخزانات في مقدمة الأهداف الرئيسية؟ عسكري يستخدم الصواريخ

المصانع الجديدة، وفي الوقت نفسه نبيع ثم ما معنى أن نضع في خطط السلطة وبرامجها إنشاء مئات
أرضها بسعر التراب، مع أنها كانت زينة المصانع وفخر المصانع القائمة خردة، ونشرد عمالها، ونبيع
.يجيب أحد على أي سؤال، ولله الأمر من قبل ومن بعد الصناعة العالمية؟ بالتأكيد لن

***

مس إيجيبت .. ومسيو ليبان !

في حمأة التغريب والتبعية القائمة على قدم وساق ؛ كي يرضى السادة الأقوياء في أوربة وأميركا ؛ قام بعض الناس هنا وهناك ، بالإلحاح على إقامة مسابقات ما يسمى ملكات الجمال ، لاختيار فتاة مصرية من بين عشرات أو مئات المتسابقات ، وتقديمهن نموذجا في استعراضات لافتة ؛ تبدأ بعرض الأجساد من خلال ألبسة تعرض مفاتن الفتاة ، وتنتقل إلى تقديمها شبه عارية في الحلقة الأخيرة من العرض بالبكيني ، حتى تتوج واحدة منهن في

النهاية ملكة جما ل على بقية الفتيات ، وعندئذ تستقبل بالأحضان والقبلات من رعاة المسابقة وراعياتها في مشاهد تمتلئ بالصياح والهتاف والصراخ وربما البكاء ، لأنها حققت المجد كله ، وجمعته من أطرافه !

في الكواليس أو ما يجري خلف العرض ، يتم قياس جسد الفتاة : الخصر والصدر والعنق والسيقان وغيرها ، كما تتم عمليات اختبار لا أحد يدري طبيعتها إلا الله والقائمون على الأمر ، ولكنها في النهاية تحول الفتاة إلى مجرد " جثة " يتم عرضها للنظارة ، ويجنى القائمون عليها أرباحا خيالية ، ويكون نصيب الفتاة ومن تليها ، أن يلتفت إليها تجار الموضة والسينما والتلفزة والإعلانات ، بالإضافة إلى ما يطلبه رجال الأعمال من فتيات " حسنة المظهر " للعمل في السكرتارية ، والعلاقات العامة ، وأمور أخرى !!

بالطبع لن يسمعك أحد إذا قلت إننا أمة تحترم الجمال الروحي الذي يقوم على العفة والطهارة والحياء والخجل ، ونحترم الجميلة التي تتفوق في العلم ومجالات البحث والعمل بصفة عامة ، وأن المرأة الدمية التي منحها الله بعض الجمال الشكلى لا تعنينا في كثير اهتمام ، لأن هذا الجمال الجسدى مصيره في يوم ما الذبول والتلاشى ، ولا يبقى إلا جمال الروح مستمرا ، ملاصقا لصاحبته حتى ينتهي الأجل المحتوم .. ولكن تجار الرقيق الجدد لهم رأي آخر !

كانت مصر المسلمة ، بعيدة عن هذه الصرعة إلى عهد قريب ، ومع سعار التجارة في كل شيء ، حتي الخردة ، وكابلات الهواتف المسروقة ، راح نفر من التجار والسماسرة ، بمساعدة بعض الأجانب المشتبه بهم ؛ يعقدون مثل هذه المسابقات ، في شبه سرية ببعض الفنادق الكبرى ، والإعلان عنها بوصفها مسابقات " ثقافية !"، لدرجة أن ورطوا بعض مشايخ السلطة وفقهاء الشرطة ؛ في الإفتاء بجوازها لأنها تتناول وفقا لما قيل لهم ؛ أسئلة ثقافية !

وخطوة خطوة ، ومع سيولة القيم ،وانهيار الأخلاق لدي بعض الشرائح ؛ لدرجة ظهور فتيات على شاشة التلفزة يعترفن بأنهن يمارسن الدعارة نظير مبالغ كبيرة ، ووجود عشرات بل مئات فتيات الكومبارس اللائي يتعرين في الكليبات الإباحية أو شبه الإباحية نظير مبالغ تافهة ، وظهور ممثلات لايمانعن في التصوير في صور غير لائقة ، بل تروج بعضهن صورا فاضحة على شبكة الأنترنت ' فقد صارت مسابقات ملكات الجمال في مصر الإسلامية ، بلد الأزهر وعقل الإسلام ، أمرا طبعيا ومألوفا ، لدرجة أن نفاجأ بإحدى الفتيات مع أمها على شاشة إحدى القنوات للاحتجاج على عدم فوزها بالمركز الأول ، أي الملكة ، وأن هناك أخطاء أو مجاملات أو أشياء أخرى ضيعت المركز الأول على المحتجة !

الأم وابنتها تستمران على الشاشة لفترة زمنية طويلة لمناقشة قضية مخجلة بكل المقاييس لمن يعرف ربه سواء كان مسلما أو غير مسلم ، ومخجلة للتقاليد المصرية العريقة ، وقيم

الإنسان المصري على مدى تاريخه في العفة والحياء وكرامة المرأة .والغريب أن الأم لم تجد غضاضة في حديثها عن ابنتها التي لم تظفر باللقب ، وبقيت في المكان الثاني أو دور الوصيفة كما يسمونه ، وكأنها تسجل لمصر نصرا غير مسبوق في مجال تكنولوجي لم يسبق إليه أحد ، ثم إنها لشدة إيمانها بجمال ابنتها أرادت أن تثبت لمستمعيها أو مشاهديها بأنها سيدة مستنيرة للغاية ، فأخذت تنثر في ثنايا كلامها ألفاظا أجنبية عديدة ،وكأن لغة بلادها الأصلية –أقصد اللغة العربية – صارت جربا يجب أن تبتعد عنه ، وتتخلص منه قدر الإمكان !

كنت أتمنى من مقدمى البرنامج أن يخصصا هذه المساحة الزمنية لموضوع آخر يقدم لمسة جمالية حقيقية ، بدلا من تخصيصها لهذا الأمر المخجل بكل المقاييس ، ويحول المرأة المصرية " الحرة " إلى مجرد سلعة يتاجر بها سماسرة الرقيق الأبيض تحت اسم مسابقات " ملكات الجمال " !

أي جمال ؟ وأي ملكية ؟

إن الفتاة التي كانت تجلس على الشاشة ، وقد تعرى نصفها الأعلى تقريبا ، تبدو مناضلة غير عادية في دفاعها عن حقها المزعوم بوصفه أمرا حضاريا ، يفوق الدفاع عن حرية القضاة في الاستقلال ، ويفوق حقوق الفلاحين في دفاعهم ضد المرابين الجدد والمحتكرين الذين احتكروا الأسمدة والتقاوي والتصدير ، وعرضوا محاصيل البلاد للخطر ، ويفوق حقوق العمال في دفاعهم عن مصانعهم وأجورهم ضد من يبيعون كل شيء في البلد ، وينكلون بالشرفاء في كل المواقع ، ويفوق دفاع أساتذة الجامعات عن هيبتهم واستقلالهم وأجورهم المتدنية التى هبطت إلى درجة لا ينافسهم فيها غير عمال الخرسانة المسلحة ؟

إن تجارة الرقيق الأبيض المعاصرة تحت مسمياتها الجديدة ، كان ينبغي أن تستحث المجالس القومية والوطنية للمرأة ، العليا منها والسفلى ، لتدافع عن المرأة التي صارت سلعة رخيصة في الفنون والإعلام ومسابقات الجمال ومساعدة من يسمون رجال الأعمال ، حتى أضحت رقيقا مستباحا بأيدي النخاسين الجدد!

أعلم أن هذه المجالس تكره الإسلام كراهية التحريم ، ولكنها بالمفهوم الإنساني العام أو البحت ، يجب أن تخجل مما يجري للمرأة المصرية والعربية ، ويجب أن تستنكر هذه المسابقات التي تقود المرأة ، فائزة أو غير فائزة إلى طرق ودروب غير طبيعية ، مليئة بالأشواك والمهانة والأسى ، وما لا أحب أن أذكره.

ما فائدة هذه المجالس التي تسيطر عليها مجموعة من المنتفعات بأموال الشعب الكادح البائس، ليخرجن في مناسبات شتي ؛ لهجاء الإسلام وقيمه وتشريعاته ومقاصده ، ويتحدثن عن أمور لا تخص المرأة المصرية البسيطة التي تكدح في الحقل والمصنع ، وتواجه قهر

الغلاء والزحام ، وسوءا لمسكن والمأكل .. ولا ينطقن بكلمة واحدة لصالح هذه المرأة المسكينة المستباحة بفساد السلطة وإهمالها؟

وإذا كان منظر الفتاة وأمها على الشاشة التليفزيونية يدافعان عن حقيهما في اللقب (ملكة الجمال) قد صدمني ، فقد كانت صدمتي أشد ، ودهشتي أكثر ، حين رأيت على قناة لبنانية – من القنوات إياها – مسابقة من نوع آخر تنعقد لا ختيار "الشاب الجميل " في لبنان ! رأيت مجموعة من الشباب مكتملى البنيان ، مفتولى العضلات ، معظمهم يطيل شعره ، أو يجعل له ذيلا .. ويرتدون مايوهات البحر ، وتقوم مجموعة من النساء(!) ، وبعض الرجال بالإشراف على المسابقة وتنظيمها ، حتي تم اختيار " الشاب الجميل !!" أو شاب لبنان ، وتستقبله النساء الراعيات بالأحضان والقبلات !

وبالتأكيد فإن هذا الشاب وأمثاله لا علاقة لهم بحرية لبنان أو مقاومة أعدائه ، أو السماع عما يسمى باستقلال لبنان !

وما بين " مس إيجيبت " و " مسيو ليبان" ، يحار المرء فيما يجري للأمة العربية المسلمة على أيدي تجار الرقيق الأبيض وغير الأبيض ، وما يجري علي يد تجار آخرين يمارسون القمع والاستبداد ، واللصوصية بالقانون ، وما يجري على يد مجرمي العالم الكبار من الغزاة الصليبيين ، وخدامهم من النازيين اليهود .. وحين يربط المرء كل ذلك ببعضه ، فإن السؤال الذي يطرح نفسه كما طرحه الشاعر الراحل محمود حسن إسماعيل من عقود طويلة ، هو : أين المفر ؟!!

***

تحرير الجامعة .. أول الجودة!

كان خبراً صاعقاً للظلم وأعوانه بكل تأكيد . لم يكن مجرد حكم من أحكام القضاء الإداري يسمعه الناس كل يوم ، ويمرون عليه مروراً عابراً ، أو لا يتوقفون عنده إلا لماماً ، فقد كان الحكم الذي أصدرته محكمة القضاء الإداري في الأسبوع الأخير من نوفمبر ٢٠٠٨م ، مع تنفيذه بمسودته دون إعلان ، لإلغاء الحرس الجامعي ، وإخراجه من حرم الجامعة ؛ انتصاراً كريماً لحق الشعب المصري في تعليم حرّ مستقل يبنى مصر ويصنع مستقبلها ، ويحقق أحلامها التي ضلت الطريق إلى التحقيق طوال نصف قرن أو يزيد .

قضت الدائرة الأولى / أفراد بمحكمة القضاء الإداري بمجلس الدولة في ٢٠٠٨/١١/٢٥م بإخلاء جامعة القاهرة من الحرس الجامعي ونقله إلى خارج أسوارها ، وقضت بإلغاء القرار السلبي لرئيس الجامعة بعدم إنشاء وحدة للأمن تتبع مباشرة رئيس الجامعة ، وقررت المحكمة تنفيذ الحكم بموجب مسودته بدون إعلان .

هذا هو القرار الذي أصدرته محكمة القضاء الإداري بعد أن أقام الدكتور عبدا لجليل مصطفى الأستاذ بطب القصر العبنى ، دعوى قضائية ضد رئيس جامعة القاهرة ووزير الداخلية ورئيس الوزراء ، مطالباً بإغلاق مكاتب الحرس الجامعي التابعة لوزارة الداخلية ، وعدم السماح لأي من رجال الشرطة بالوجود داخل أسوار الجامعة سواء بالزى الرسمي أو المدني . وجاء الحكم إقراراً للدستور الذي ينصّ على حرية الرأي والتعبير وتوفير الحماية للبحث العلمي والإبداع الأدبي والفني وحق المشاركة في الانتخابات . كما جاء متوافقاً مع نصوص وروح قانون تنظيم الجامعات ٤٩ لسنة ١٩٧٢ وتعديلاته التي تنصّ على كفالة الدولة لمبدأ استقلال الجامعات ، وتخصيص وحدة للأمن بلباس مدني مميز في الجامعات تتبع رئيس الجامعة مباشرة ، وينحصر دورها في حماية منشآت الجامعة وأمنها دون تدخل في الحريات الأكاديمية والفكرية .

هذا الحكم التاريخي كما وصفه المعنيون بأمر الجامعة وتقدم الوطن يصحح جانباً من جوانب الخلل في الواقع العلمي الذي تعيشه مصر ، حيث عاش العلماء والمفكرون داخل الجامعة منذ انقلاب ١٩٥٢م أسوأ فترات حياتهم العلمية والفكرية ، فقد بدأ ضباط الانقلاب عهدهم بفصل أكثر من خمسين أستاذاً من بينهم أعلام في تخصصاتهم . وتوالى تقييد الجامعة ، وتحويلها إلى مؤسسة خانعة تعيش تحت رحمة الأمن العلني والأمن السرّى ، ويعيث فيها جواسيس النظام من التنظيمات السرّية (منظمة الشباب والتنظيم الطليعي و حورس) فساداً بكتابة التقارير الظالمة لإيذاء الأساتذة والطلاب والعاملين بالجامعة ، وحرمان أصحاب الكفاءات العالية من حقوقهم في الترقي والمناصب الإدارية ، أو تقديمهم طُعماً سائغاً للمحاكمات أو الفصل التعسفي ..

كان الاحتلال البوليسي للجامعة والتدخل في أدق شئونها ، من أخطر الأسباب التي أدت إلى تدهور التعليم وقتل الأجيال معنوياً وإتاحة الفرصة للمتسلقين والأفاقين والباحثين عن المنافع كي يصعدوا إلى سدة المناصب الإدارية ويشوشوا على الشرفاء في هذه المناصب ، مع إطفاء شعلة الحرية العلمية والفكرية لحساب إرضاء السلطة البوليسية بأي ثمن ، وأضحى أمين الشرطة أهم من عميد الكلية ، ونقيب الحرس أخطر من رئيس الجامعة ، وصار " الزى الكاكى " عضوا دائماً في مجالس الكليات والجامعات بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، وإن لم يسجل في المحاضر الرسمية ، وأضحى تعيين رئيس القسم أو الوكيل أو العميد أو النائب

أو الرئيس مرهوناً برضا كاتب تقرير الشرطة ، سواء كان بدرجة أمين أو برتبة أعلى .. ولذا لم يكن عجيباً أن تنشر الصحف ذات يوم ، بعد أن شهد من شهد من الأساتذة ، أن رئيس جامعة إقليمية كان يهبط السلم في إدارة الجامعة التي يرأسها ، وكان هناك ضابط من الحرس برتبة نقيب يصعد السلم في الوقت ذاته ، فسأله الرئيس : أصعد أم أهبط ؟ يقصد هل يريده الضابط فيصعد معه إلى مكتبه أم ينزل إلى مهمته التي يقصدها ؟

فردّ عليه الضابط في صلف واشمئزاز : اصعد أو انزل .. أنت حر !!

هكذا وصلت الأمور وتدنت حتى صار رئيس الجامعة يسترضى ضابطاً صغيراً في عمر أولاده ووضع تلامذته !

ولم يكن غريباً ، أن يعلق رئيس إحدى الجامعات على الحكم التاريخي بقوله : " إن الحكم ليس في صالح الجامعة " وأضاف متسائلاً : " من سيحمى منشآت الجامعة التي تكلفت المليارات في ظل عدم وجود الأمن ؟ " .

لقد زرت العديد من جامعات العالم ، فلم أر أثراً لشرطي أو حرس يرتدى الكاكى . حتى في أشد البلاد ديكتاتورية وشمولية ، يدخل الناس الجامعة ويخرجون دون أن يستوقفهم أحد ، لسبب بسيط : أن الجامعة دار علم ، ومن يذهب إليها يبحث عن المعرفة ، ثم إن الأمن الذي يحمى المنشآت العامة وأملاك الناس توفره الدولة بصفة شاملة وكاملة ، فلا يستطيع لص أو مخرب أن يقترب من أية منشأة عامة أو خاصة ، هكذا يفهمون الأمن في الديكتاتوريات والشموليات ، فما بالنا في أزهى عصور الديمقراطية لا نعى هذه الفكرة ؟

من الطبيعي جداً أن يدافع عن الحرس الجامعي ووجوده في الجامعة ، من رفعهم الأمن إلى مناصبهم دون غيرهم من زملائهم الأكفاء ، ليستمتعوا بالبدلات والإضافات التي تجعل دخل الواحد منهم عشرة أضعاف أقرانهم ، بل أكثر ، فضلاً عن الامتيازات المادية والمعنوية والسفر إلى أوروبا وأمريكا على حساب الدولة ، ولكن هذا الدفاع يسقط أمام حق الوطن في جامعة حرة مستقلة ، استقال رموزها في الماضي احتجاجاً على بعض التدخلات الحكومية ، وليس الاحتلال الأمني الدائم ..

إن الحرية والاستقلال والطمأنينة الفكرية ، أساس العمل لتحقيق ما يسمى " الجودة " التي صدعونا بها ، ومن المعيب أن تبادر وزارة التعليم العالي – وليس الداخلية – إلى استئناف الحكم التاريخي بإلغاء الحرس الجامعي ، وتفسير هذا الأمر يحتاج إلى صفحات ، ولكننا من منطلق حب هذا الوطن المظلوم نؤكد أن الزمن لا يرجع إلى الوراء ، وأن الفجر آت لا محالة ، وأن البقاء للأصلح ، وأن تحرير الجامعة سيتبعه تحرير " الأستاذ " الجامعي ، من الإذلال المادي الذي دشنه نظام " أزهى عصور الديمقراطية " ، ويومها سنجد جامعة نباهى بها الأمم بمشيئة الله .

– ضابط شهم وشجاع وأمين رفض اثني عشر مليونا من الجنيهات ليشارك في جريمة سرقة آثار ، ولكنه بضميره الديني الإسلامي الوطني رفض الرشوة ، وجعل مركز نقادة في جنوب مصر يتصدر الأخبار رمزا للأمانة والطهارة .. إنه ضابط شريف ، خالص التحية له ولأمثاله .

– المتمردون الطائفيون في عين شمس ما إن علموا أن مسجدا جديدا يتم إنشاؤه حتي حولوا مصنعا قديما إلى كنيسة ، وطالبوا بإلغاء ميكرفون المسجد ، ورفعوا أصواتهم بالترانيم ،وقذفوا المصلين في المسجد بالطوب والحجارة ، وجروا شكل الناس تحديا واستخفافا ، وشعارهم كنيسة أمام كل مسجد ، وإلا فالنظام يضطهد النصارى .. معتمدين على تأييد بعض اليساريين والمرتزقة والمرتدين .. ونسوا أن الثمن سيكون فادحا على المدى الطويل !

***

محاكمة الأستاذ الجامعي !

لا أقصد محاكمة المدرس الجامعي الذي سطا على الإمام القرطبي ، واستباح تفسيره العظيم ، وأغار على أجزاء منه قصها ولصقها وباعها لطلابه في جامعة كفر الشيخ الوليدة ، ولم يجد حرجاً أو غضاضة في الزعم أنها دراسة مستخلصة من تفاسير القرآن ، وعنونها بعنوان ضخم ومثير " في النص القرآني " ، ومع أن الزميلة جريدة " وفد الدلتا " نشرت عن ذلك فى عدد أغسطس ٢٠٠٧م تحت عنوان صارخ : " أستاذ جامعي يسرق الإمام القرطبي" ، فإن رئيس جامعة كفر الشيخ المحترم ، حتى يومنا هذا لم يتخذ قراراً ، ولم يُسائل المدرس الجامعي الذي ينتمي إلى الحزب الوطني ، وينوب عنه في مجلس الشعب الموقر .. لماذا يا معالي رئيس الجامعة لم تتخذ قراراً حتى اليوم ؟ وما الذي يُخيفك من مساءلة المدرس المذكور الذي يفترض أنه يخضع لعدة رؤساء بعدك : رئيس القسم ، الوكيل ، العميد ، النائب ؟ هل تمنعك الحصانة البرلمانية من مساءلته إدارياً ، وإخلاء ساحته إن كان بريئاً ؟ أو إنه يملك حصانة القرب من وزير التعليم العالي الذي شرّفه – كما يتفاخر – في بيته ، وشرب لديه الشاي بعد أن تناول الغداء لدى زميله الآخر نائب الدائرة ؟ ليس المقصود الآن هذا المدرس ، وإن كانت لنا عودة إليه إن شاء الله تعالى ، بعد أن نتناول المحاكمة الهزلية التي انعقدت للأستاذ الجامعي ، وسادها التخليط والمغالطة والمكايدة ، على شاشة تلفزيون الريادة – رحمه الله – ذات ليلة من ليالي البؤس في المحروسة !

ضم العرض أو المحاكمة الهزلية للأستاذ الجامعي المصري عضواً في لجنة السياسات ومسئولة جامعية تنتمي إلى الحزب الحاكم ، بالإضافة إلى مجموعة طلاب أتوا بهم على طريقة برنامج المذيعة التي أعدت فتيات بائسات ليعترفن أنهن فتيات ليل ، نظير مبلغ تافه .. وكان الطلاب في برنامج المحاكمة قد لقنوا – كما هو

واضح من السياق – الأسئلة وطريقة عرضها بحيث يبدو الأمر متقناً وطبيعياً .. ولكنى وغيري من المشاهدين لم يُصدقوا ما رأوه ..

تحدث الطلاب عن عدم التواصل بين الأستاذ وطلابه ، واستعلاء الأستاذ عليهم ، وعدم وجود وقت لديه كي يُجيب على أسئلتهم ، وأشياء أخرى طريفة منها على سبيل المثال أن أحد الأساتذة رفض أن يشرب أحد الطلاب ماء إلا بعد أن يردد دعاء قبل الشرب ، بالإضافة إلى القضايا المعروفة حول الكتاب والزحام في القاعات والمدرجات وعدم استقبال الأساتذة للطلاب الجدد ..

كان مقدم البرنامج الذي لا يُجيد غير هجاء " المحظورة " ، ومدح " المحظوظة "، و الإشادة بأزهى عصور الديمقراطية ، يُثير من خلال الثرثرة موضوع العمل السياسي في الجامعة ، وليته ما أثاره .. فقد كان الكلام حوله سخيفاً لا يغنى ولا يُسمن من جوع !

لقد سبق أن تناول أساتذة جامعيون وغيرهم مشكلات الجامعة ، وحقوق الأساتذة الضائعة ، وأيضا السلبيات التي تجرى من بعضهم ، وكاتب هذه السطور سجل عشرات المقالات في هذه الصحيفة وغيرها على مدى ربع قرن من الزمان ، أملاً في إصلاح الحال ، ولكن الحال كانت تسوء أكثر فأكثر لأسباب لم يستطع صاحب العرض المهزلة أن يعالجها أو يُشير إليها ، واكتفى باستعراض ما يقوله طلاب " لاظوغلي " على الشاشة ، وتصفيق " الكورس " عند جمل بعينها ، وعبارات بذاتها .

إن تطاول الطلاب على أساتذتهم في برنامج تلفزيوني لا يعنى إصلاح حال الجامعة ، ولا يؤدى إلى معالجة الخلل الكبير الذي جعل الجامعة المصرية تحتل المراكز الأخيرة في ترتيب الجامعات الإفريقية ولا أتكلم عن الترتيب بالنسبة للجامعات العالمية ، فأمره معلوم للكافة . وهو لا يسرّ إلا الأعداء !

والذي لا يريد أن يقتنع به المسئولون عن أمر التعليم في بلادنا ، أن المرحلة الأساسية سبب انهيار المرحلة الجامعية (المناهج ، والمدرسون ، والإدارة ، ووباء الدروس الخصوصية) ، وتشترك هذه العناصر أو بعضها في تعميق الضعف الجامعي .. يُضاف إليه التدخل الأمني الذي لا يوجد له نظير في العالم باستثناء دولتين عربيتين أو ثلاث .. وهو ما يدفع كثيراً من أساتذة الجامعة إلى الانضواء تحت " الرضا الأمني " أو القبول الأمني ، كي يجدوا لأنفسهم مكاناً يُحقق طموحاتهم ويفي بالتزاماتهم المادية حتى لو كانت سرقة الكتب كما فعل أساتذة كثيرون ، ومنهم المدرس القديم الذي يتمتع بالحصانة في كفر الشيخ وسطا على الإمام القرطبي ، ولم يُسائله رئيس جامعته حتى الآن !

والعجيب أن القوم يعنيهم هجاء الإسلام والمنتسبين إليه أكثر من المعالجة الحقيقة لأمراض المجتمع ، وعلى رأسها ضعف الجامعة وتخلفها . إذا افترضنا جدلاً أن أستاذاً في رحلة أو لقاء خارج المحاضرة ، مع طلابه ، ورأى أن يُعوّد طلابه على الارتباط بالله في سلوكهم وأعمالهم ، وطلب من تلميذه أن يدعو ربه قبل أن يتناول الماء .. ماذا في ذلك ؟ وما هي الجريمة الكبرى التي ارتكبها الأستاذ الذي لم يسرق الإمام القرطبي ولم يُعكر مزاجه أحد حتى هذه اللحظة ؟

لقد ذكرتني هذه الواقعة بأمر آخر حدث منذ سنوات ، حيث صنع وزير سابق للتعليم أسطورة خرافية روّجت لها صحف النظام وعملاؤه . فقد ادعى أن هناك متطرفين في المدارس يُحرّضون التلاميذ أو يمنعونهم من تحية العلم في بدء اليوم الدراسي . وحاولت أن أعثر على ظل من الحقيقة لهذا الأمر فلم أجد ، ولا أظن أن متطرفاً أيا كان يستطيع أن يمنع التلاميذ من تحية علم الوطن ، حتى لو افترضنا وجود حالة شاذة ، فهي استثناء لا يُقاس عليه . ومع أن القوم يُرددون كثيراً أن هناك غزواً وهابياً لمصر ، فإني أروى لهم قصة

طريفة تتعلق بأحد أبنائي قبل عقد أو أكثر من الزمان ، فقد كنا عائدين من السعودية ، وفى المدرسة الابتدائية طلبوا من ابني أن يتقدم ليُحيى العلم بوصفه مندوب المدرسة ، فنسي ويدأ يُردد النشيد الوطني للسعودية الذي تعود عليه منذ طفولته :

سارعي للمجد و العلياء

مجدي خالق السماء .. حتى وصل إلى المقطع الأخير :

وارفعي الخفاق أخضر / يحمل النور المسطر / ردّدي الله أكبر / يا موطني عاش الملك للعلم والوطن "

وضجت المدرسة بالضحك ، حتى الغزو الوهابي كما يُسمونه " يُحيى العلم " .. فمن أين نبتت الأسطورة والخرافة ؟

اسألوا الوزير الأمني أو الجستابو ، الذي لا يعنيه أمر الوطن ، بقدر ما يعنيه التشهير بالإسلام والمسلمين .

إن معالجة ضعف الجامعة وتخلفها معروف لجميع من يعنيهم الأمر ، وتتمثل في الارتقاء بالأستاذ الجامعي مادياً ومعنوياً ، وتحقيق الاستقلال الذاتي للجامعة ودعمها بالمعامل والمكتبات والميزانية المحترمة لتمويل البحوث ، وتحريرها من قبضة الاحتلال البوليسي الفاشي ، وتخليصها من أشباه الأساتذة والمدرسين الذين أهدروا كرامة الجامعة وهيبتها بالتصفيق للحزب الحاكم والقوانين الاستثنائية المقيدة للحريات بالإضافة إلى اللصوص الذين يسرقون جهد غيرهم جهاراً نهاراً ولا يجدون في ذلك منكراً أو عيباً ، والذين تحولوا إلى سماسرة للكسب غير المشروع بالوقاحة والبجاحة .. أما محاكمة الأستاذ الجامعي على شاشة تلفزيون الريادة – رحمه الله – بهذه الطريقة الهزلية ، فهو أمر لا يحتاج إلى تعليق ، بقدر ما هو عنوان على فجاجة الدعاية الرسمية وتسطيحها للوعي ، وتغييبها للعقل . ولله الأمر من قبل ومن بعد !

***

الوزير يفضح الأساتذة!

ما فتحت صحيفة ولا مجلة ، ووجدت فيها حديثا لوزير التعليم العالي بمناسبة العام الجامعي الجديد إلا رأيت الوزير يتحدث عن زيادة دخول الأساتذة في الجامعة ! بل إن عناوين الأحاديث الرئيسية في الصحف يتكرر فيها العنوان التالي : (٢٤ ألف جنيه زيادة في دخل الأستاذ الجامعي !) ، وفي ثنايا الحديث يأتي الشرط العجيب أن الزيادة للأستاذ الملتزم . وكأن الأساتذة لم يكونوا ملتزمين ، ولم يخرّجوا عشرات الدفعات على مر السنين منذ إنشاء الجامعة المصرية ، وكأن الالتزام لا يأتي إلا بالجلوس على المكاتب من الصباح حتى المساء مثل الموظفين البيروقراطيين الذين لا يتقنون غير فن التوقيع بالحضور والانصراف ، وكأن دفتر التوقيعات هو الذي سيحقق جودة التعليم المبتغاة !

الوزير يفضح الأساتذة ، والصحافة تنقل كلامه كأن الأساتذة زاد دخلهم بالفعل ، وهو أمر غير صحيح ، حيث لم يدخل قرش واحد جيب الأساتذة حتى الآن . الأساتذة يشعرون أن دخلهم ينخفض مع مطلع كل شمس ، لأن الأسعار تزداد ، ومرتباتهم ثابتة ، وما كان يمكن شراؤه في الشهر الماضي بعشرين يحتاج في الشهر الحالي إلى ثلاثين ، وفي الشهر القادم إلى أربعين وهكذا؛ فإن الأساتذة يعانون ويئنون ويتوجعون ، باستثناء قلة ظروفها أفضل ؛ لأسباب شتى ، كأن يكون بعضهم قضى معظم عمره الأكاديمي في جهات دولية أو أجنبية ، أو التحق بقطار السلطة فعرف الطريق إلى مناصبها ومغانمها وأطايبها ، أو أغنته مهنة تدر عليه أضعاف مرتبه ، فلم يحفل بما يجري للجنيه المصري من انقراض أو انخفاض .

في القانون ٤٩ لسنة ١٩٧٢م ، كان مرتب أستاذ الجامعة سبعة عشر ومائة جنيه مصري ، وكان ثمن شطيرة الفول (ساندويتش الفول المكون من رغيف بلدي يمتلئ بالفول والسلاطة) عشرة مليمات ، أي قرش صاغ واحد لا غير . واليوم فإن هذه الشطيرة ثمنها ألف مليم على أقل تقدير ، أي مائة قرش ، أي جنيه واحد بأكمله . الزيادة إذا مائة ضعف في ثمن الساندويتش الذي يفترض أنه أرخص المأكولات بالنسبة للشعب الملتاع ! فكم زادت مرتبات الأساتذة اليوم ؟ أقدم أستاذ يصل مرتبه في المتوسط ألفي جنيه بما فيها البدلات والحوافز وغيرها ، وكان يفترض أن يزيد وفقا لزيادة الأسعار إلى سبعمائة وأحد عشر ألفا على الأقل ، فهل هذا عدل ؟ وإذا عرفنا أن

المرتبات الفعلية بالزيادات لعضو هيئة التدريس تتراوح بين ثمانمائة جنيه وألفين ، فهل في ذلك شبهة عدل ؟
أعلم أن معالي وزير التعليم العالي لا يملك من أمره شيئا ، وأن تصريحاته مجرد فرقعات إعلامية لإلهاء الأساتذة ، وتشتيت شملهم ، وحرمانهم من التوحد أمام قضية مصيرية لا تتعلق بهم وحدهم بقدر ما تتعلق بمستقبل التعليم كله ، وأن النية معقودة سلفا على أن تظل قضية البطون والحاجات البيولوجية الأساسية هي الشغل الشاغل للأساتذة ، وإشغالهم بالفتات الذي يلوح به الوزير ويضع في طريقه ألف عقبة وعقبة ، وحتى تبقى المقارنة قائمة بين الأستاذ الجامعي والفراش في بنك التنمية الصناعية الذي يصل مرتبه إلى ألف وخمسمائة جنيه !
لا ألوم معالي الوزير على ما يبديه ويمارسه ، لأن أصحاب القرار الحقيقي يهدفون إلى شيء آخر ، أكبر من إرادته ، هذا الشيء يستهدف سحق الإرادة المصرية وتدمير طاقتها العلمية ، وإبقاءها داخل غرفة الإنعاش !
أصحاب القرار متأكدون أن الحد الأدنى لمعيشة الأستاذ الجامعي غير متحقق ، ولكنهم يتعمدون إذلاله ، وتخريب الحلقة الأساسية في تطوير الأمة وبناء مستقبلها .. ومنذ وضعوا الأمن السياسي على بوابة الجامعة باسم الحرس الجامعي ، وحركوه إلى داخلها ، وتدافع البعض من الأساتذة إلى إرضاء أمين الشرطة قبل إرضاء الطالب الجامعي الفقير سعيا لمنصب أوغنيمة ، فقد بدأت عملية الإذلال والتخريب ، وهذه لعملية في كل الأحوال لها علاقة بما يجري على امتداد الوطن العربي من بغداد حتى الرباط ،ولعل ذلك يتضح في مناسبة أخرى .
***

بركاتك يا شيخ رجب!

كان مهرجاناً شاملاً ، انتقل من تلفزة النظام البوليسى الفاشى ، إلى قنوات رجال القروض ، إلى صحف لاظوغلى وطشة الملوخية ولحم البعرور وتبولة الشام .. كان المهرجان بسبب موافقة رئيس الدولة على علاج الشيخ " رجب هلال حميدة) عضو مجلس الشعب (المعارض !) على نفقة الحكومة لمدة ستة شهور فى عاصمة أجنبية .. أسهبت أجهزة الدعاية الحكومية وشبه الحكومية فى الحديث عن كرم الدولة وسخائها مع مواطنيها الذين لا تفرق بينهم على أساس الموالاة والمعارضة ، فمع أن الشيخ رجب (معارض !) وصوته عال ضد الحكومة ، وضد الفساد ، وضد محاربتها للأحرار ، فقد اتصل به سيادة الرئيس ، بعد أن نقل إليه سيادة اللواء رئيس الديوان الجمهورى خبر الموافقة على العلاج .

قالت أجهزة الدعاية إن الشيخ رجب فوجئ بالرئيس يتصل به ، ويتحدث معه حديثاً أبوياً ويطمئن عليه وعلى أسرته ويتمنى له الشفاء ، ويُعبّر عن تضامن الدولة معه حتى يرجع بالسلامة عائداً فى إهاب الصحة والعافية وطول العمر .

الشيخ رجب عبّر هو الآخر عن شكره وامتنانه واعتزازه بأبوة السيد الرئيس ، وقال ذلك فى الاتصالات الهاتفية التلفزيونية والصحفية التى انهالت عليه عقب إذاعة خبر علاجه على نفقة الدولة ، وقال الشيخ رجب إنه كتب طلبا – مجرد طلب على ورقة بيضاء – وأرسله إلى السيد الرئيس ، فجاءت الموافقة بأسرع مما يتوقع ، وحققت حلمه فى العلاج خارج البلاد .

فرحت – والله – لموقف الدولة ، وموافقتها على علاج مواطن مصرى ، قبل أن يكون عضواً أو نائبا بمجلس الشعب ، مؤيداً أو معارضاً ، حقيقيا أو مستأنسا ، فهذا لا يعنينى ، بقدر ما يعنينى أن من جرّب الألم وعاش محنة المرض ، يتمنى العافية لكل الناس ، ولو كانوا من خصومه وأعدائه ، فلا شىء يقهر الإنسان إلا الدّاء والدواء . كلاهما مرّ وقاس ، وكلاهما يُعيد الإنسان إلى ربّه ليستشعر قدرته وعظمته ورحمته ، حيث لا يُساوى المريض وهو سليم جناح بعوضة ، ولا يزن مثقال ذرة عند ربّه حتى وهو سليم معافى ، ولكنه كرّمه وأعطاه العقل وأفاض عليه نعمة الدين ليتعرف على خالقه ، فيسمع له ويُطيع ، ويبتعد عن الطغيان والجبروت وقهر أخيه الإنسان .

ويبدو أن بركات الشيخ رجب كانت حاضرة ، حيث غابت عن الدكتور عبدالوهاب المسيرى ، مثقف الأمة ، الذى أبت نفسه أن تذلّ لأحد غير لله ، وتعفف عن قبول التبرعات من الشعب لعلاجه ، ورضى بقدره مستسلماً لإرادة الله . فى حين صمتت السلطة البوليسية الفاشية عن نداءات من يملكون الأقلام والأصوات لمعالجته على حساب الشعب ومن ميزانيته ، لأنه فى أبسط الأحوال مواطن مصرى خدم بلاده خدمة جليلة تفوق ما يقدمه أعضاء مجلس الشعب أجمعين ، مع احترامى لهم جميعاً ، فالذى أنجزه لا يقدرون جميعاً على إنجاز بعضه ، وفى الوقت ذاته كان ينفق من جيبه وميراثه على موسوعته – كما أشرت فى المقال السابق – ثم إنه كان أكثر تطبيقا عمليا لما تعلمه ولما يؤمن به ، حين نزل إلى الشارع ليتظاهر ضد الطغيان والفرعنة وإهدار كرامة الإنسان ، مع أن من فى مثل عمره – وقد قارب السبعين – يجب أن يخلد إلى الراحة والهدوء ، ولكنه أبى أن يقعد مع القاعدين ، أو يكتفى بكلام يذهب مع الريح ، وراح يتقدم الشباب والرجال والنساء الذين واجهوا الخوذات الغبية والنبابيت البلهاء والبيادة العمياء !

المسيرى معارض للدولة ، ولكن معارضته – كما يرى النظام البوليسى – تخرجه من سياق المعارضة إلى نوع آخر ، لا أعرف كيف أسميه ، بدليل أنها فرّقت بينه وبين المؤيدين ، ورفضت أن تعالجه على نفقتها ، وتركته أو تركت أمره ، ليتولاه أمير سعودى ، أو تاجر

مصرى يعرف قيمة الرجل ، فرقّ لحاله ، وتبرع من ممتلكاته أو ثروته ، ليقوم بما كان ينبغى أن تقوم به الدولة تجاه أحد مواطنيها اسمه عبدالوهاب المسيرى !

كان الرجل منتسباً إلى إحدى الجامعات المصرية ، وأستاذا بها ، ولا أدرى أظل مرتبطاً بها ، أم انفصل عنها ، وإن كانت السيدة حرمه مازالت – فيما أعلم – أستاذة بإحدى الكليات الجامعية ، ويُفترض أن الجامعة التى تنتسب إليها أو ينتسب هو إليها ، أن تعالجه وتتولى شئونه الصحية ، ولكن أمر علاج أساتذة الجامعة ، يمثل جرحاً غائراً فى أعماق هيئة التدريس عموماً ، باستثناء من التحقوا ببلاط النظام ، وعاشوا على أعتابه ، وعيّنوا أنفسهم فى وظيفة " مسوّغاتى " أو " مشعللاتى " على رأى " سعاد حسنى " حين عيّنت " فريد شوقى " فى وظيفة " مشعللاتى " !

أستاذ الجامعة البعيد عن النظام البوليسى الفاشى ، أمامه طريقان للعلاج لا ثالث لهما ، أولهما ما يُسمى بالتأمين الصحى ، نظير الخصم الإجبارى الذى يُستقطع من مرتبه الشهرى المحدود ، وعليه إذا أراد الكشف والتشخيص والعلاج ، أن يأخذ بطاقته ، ويذهب بعد طلوع الشمس – لا أبالغ – ليحجز مكانه وسط طوابير الموظفين والعمال والطلاب الذين حضروا للعلاج ، وحتى يأتى موعد الكشف عليه يكون النهار قد بدأ يميل إلى الشيخوخة والشمس تستعد للغروب ، ناهيك عن " بهدلة " الزحام و " بعثرة " الكرامة !

أما الطريق الآخر ، فهو اختراع أخذت به بعض الجامعات – أو كلها لا أعرف – وهو خصم مبلغ إضافى من المرتب ، نظير ما يُسمى الرعاية الصحية ، حيث تتعاقد الجامعة مع بعض المستشفيات الخاصة على علاج الأساتذة وحدهم دون أسرهم . فيأخذ الأستاذ خطابا من كليته ويذهب إلى المستشفى التى تُحوّله إلى طبيب متعاقد معها حيث يجلس فى انتظار دوره .. ثم يقرر له العلاج المطلوب ، وقد يسبق ذلك تحاليل وأشعة ونحوها ، فيضطر للذهاب – وهو غالباً شيخ مهدّم تجاوز الستين – إلى مستشفى الجامعة التعليمى لينتظر دوره أو أدواره وسط الزحام القادم من التأمين الصحى والأقسام الاقتصادية (يعنى التى تعالج بالفلوس) ثم يعود ليكتب طلباً بالعلاج إلى رئيس الجامعة الذى يُحوّله إلى لجنة طبية التى تقرر الاستحقاق من عدمه ، وبعدئذ يدخل متاهة الموافقات والمراجعات والبحث عن الأصناف الموجودة فى صيدلية الجامعة ، أو شراء البديل ، وتحرير طلب بقيمتها مع الفواتير التى تصرف أو لا تصرف بعد شهور ومشاوير تهدّ الحيل ، إذا كان هذا " الحيل " موجوداً أصلاً !

أما العلاج فى الخارج ، فأيامه "بيضاء" . " أبيض " من قرن الخروب ! وقد رأيتم ما جرى للمسيرى !

ولكن الأساتذة المحظوظين من أهل البلاط أو الحرملك ، فالطريق أمامهم مفتوح ، والتسهيلات بلا حدود ، وباقات الورد ، ولو فى باريس – بلا عدد !

لا تحدثنى عن بقية الناس من الذين أنهكتهم الأغذية المسرطنة والمياه الملوثة ، والغلاء الفاحش ، والمجارى الطافحة ، والمخدرات المنتشرة ، والمساكن الزدحمة ، والأيام الخانقة .. فهؤلاء الذين يمثلون الأكثرية الساحقة التى لا تعرف السلطة البوليسية الفاشية عنها شيئاً ، ولا تُريد ، وبالتالى ، فإن حلمهم بالعلاج المجانى أو شبه المجانى ، قد تم وأده تماماً ، فأقل تذكرة دواء لا تقل قيمتها اليوم عن مائة أو مائتى جنيه . مرتب شهر كامل للشخص المحظوظ الذي يجد عملا ؛ وربما أكثر ..

ومع ذلك فإن كتاب لاظوغلى لا يذكرونهم بكلمة ، وإن كان أحدهم سخر بوقاحة من المسيرى وتمنى له الشفاء !

***

كتب للمؤلف
الأستاذ الدكتور حلمي محمد القاعود

أولا : كتب صادرة عن دار النشر الدولي بالرياض

١- النقد الأدبي الحديث: بداياته وتطوراته.
٢- تيسير علم المعاني .
٣- الأدب الإسلامي : الفكرة والتطبيق .
٤- محمد- صلى الله عليه وسلم –في الشعر العربي الحديث (طبعة ثانية منقحة ومزيدة ومجلدة وفاخرة) .
٥- المدخل إلى البلاغة القرآنية .
٦- القصائد الإسلامية الطوال في العصر الحديث: دراسة ونصوص (طبعة رابعة).
٧ - تطور النثر العربي في العصر الحديث .
٨- مدرسة البيان فى النثر الحديث .
٩- تطور الشعر العربي فى العصر الحديث .
١٠- المدخل إلى البلاغة النبوية.

ثانيا : كتب صادرة عن دارالعلم والإيمان (دسوق – كفر الشيخ) :

١- الإخوان والنظام : برنامج الحزب المستحيل .

٣ - وجوه عربية وإسلامية .
٤ - الورد والهالوك : شعراء السبعينيات في مصر (طبعة ثالثة) .
٥ - الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني (طبعة ثالثة) .
٦ - الرواية التاريخية في أدبنا الحديث (طبعة ثالثة) .

٨ - الرواية الإسلامية المعاصرة (طبعة ثانية).
٩- فى رياض النبوة (٣ أجزاء)
١٠- شعراء وقضايا : قراءة فى الشعر العربى الحديث .

ثالثا : إسلاميات :
١- مسلمون لا نخجل (٤ طبعات).
٢- حراس العقيدة (٣ طبعات).
٣- الحرب الصليبية العاشرة.
٤- العودة إلى الينابيع .
٥- الصلح الأسود .. والطريق إلى القدس .
٦- ثورة المساجد .. حجارة من سجيل .
٧- هتلر الشرق وبلطجى العراق ولص بغداد .
٨- جاهلية صدام وزلزال الخليج .
٩- أهل الفن وتجارة الغرائز (طبعتان) .
١٠- النظام العسكري في الجزائر .
١١- حفنة سطور .. شهادة إسلامية .
١٢- الأقصى في مواجهة أفيال أبرهة .
١٣- الإسلام في مواجهة الاستئصال .
١٤- تحرير الإسلام .

١٥- دفاعا عن الإسلام والحرية .
١٦- التنوير .. رؤية إسلامية .
١٧- معركة الحجاب والصراع الحضاري .
١٨- العصا الغليظة .
١٩- واسلمى يا مصر
٢٠- ثقافة التبعية : المنهج . الخصائص . التطبيقات .
٢١- انتصار الدم على السيف.

رابعا : كتب أدبية ونقدية :
١- الغروب المستحيل (سيرة كاتب) .
٢- رائحة الحبيب (مجموعة قصصية عن حرب رمضان) .
٣- الحب يأتي مصادفة (رواية عن حرب رمضان) .
٤- موسم البحث عن هوية : دراسات في الرواية والقصة) .

٥- حوار مع الرواية المعاصرة فى مصر وسوريا
٦- لويس عوض الأسطورة والحقيقة . حوار مع الرواية في مصر وسورية .
٧- الوعي والغيبوبة : دراسات في الرواية المعاصرة .
٨- إنسانية الأدب الإسلامي .
٩- حصيرة الريف الواسعة .
١٠- أضواء على الرواية الإسلامية .

خامسا : إعلام :

١- الصحافة المهاجرة : رؤية إسلامية .

سادساً: كتب للأطفال :

١- واحد من سبعة .

الفهرس